رواية

"على حافة الخريطة"

رضوان محمد آدم

(البرنس)

اسم الكتاب : على حافة الخريطة

اسم الكاتب : رضوان محمد آدم (البرنس)

تصميم الغلاف : مي مجدي

تنسيق وتدقيق لغوي : نورهان هاني

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٢٦٥٢٢

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٨٧٩١-٤٢-٦

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية

رواية

"على حافة الخريطة"

مقدمة

يحق لي أن أكتب ما شئتُ ، كما يحق لكم ألا تقرأوا شيئاً...

فما هذه الصفحات إلا أن بعضها أمنيات وبعضها الآخر أصواتٌ تئنُ عند تلك البقعة على الحافة من خريطة الوطن...

إهداء خاص:

- صديقي نور الدائم بخيت مرسال، هل تذكر حين قلتُ لك ذات مرةٍ ونحن في الطريق العام جملةً أعجبتكَ، فضحِكتَ ثم نظرتَ إلى عيني وقلتَ بحبٍ: "يا رضوان، أنتَ يجب أن تكتب".
- إليكَ يا صديقي، يا زارع البذرة .. هذه الرواية برغم بَسَاطَتِها فهي إهداء لكَ، ولكَ حق الفخر والثناء بكل حرفٍ فيها..
- ثم الشكر للأسرة الكريمة ولكل الأصدقاء والمُلهمين الذين آمنوا بقلمي..
- إهداء إلى دارفور التي تُعاني عند الحافة..
- إهداء إلى مُحبي السلام..

ثواني الفجر تمضي

أنفاسٌ متزنة متزامنة مع شمسٍ تشقُ رحمَ الليل لتُعلن عن ميلاد يوم جديد، شقشقةُ عصافيرٍ وصياحُ ديوكٍ، تلكَ أصواتُ دوزنةِ موسيقى الفجر الريفي المقرونة بنهيقِ الحُمر ونباحات الكلاب المُتخافضة مع علو شمس الصبح.

ومع عليل نُسيمات الريح المُبكرة والنقية من مخالطة أنفاس البرجوازيين المدنيين، والنقية من إفرازات مصانع المدن..

كانت هذه ملامحُ صباحات الريف المعتادة على المحليين ولكنها كانت ملامحُ جديدة على ابن المدينة الأصيل...

"نبيل" في مطلع العشرينيات من العمر، الآن جالس وشمس الصباح عالية يتفرسُ وجوه أقاربه القرويين بعد أن جاء لزيارتهم..

يحكي "نبيل": أمي، أبي، وأختي الصغيرة، بتحية أهل الأرض أُحييكم، في صباح يومٍ أشرق محياكم، وبسلامِ القلب أكتبُ إليكم، فسلامٌ وسلام الله عليكم.

أمي، أفتقدُ شاي الصباح المُعد بأرق الأيادي ومحتوياً على حنيةٍ تكفي لإحتضان العالم أجمع.

أبي، إفتقدتُ اليوم جملتكَ الفجرية " قُم يا النائم .. وحّد الدائم؛ قد حان وقت الصلاة".

أختي، أفتقدُ نظرة عينيك ونبرة صوتك وأنت تقولين: صباح الخير يا الغالي.

على سريرٍ خشبي منسوج من السعف الريفي (العنقريب) أجلسُ قرب جدي، وعلى البِساط جدتي جالسة، بينما عمتي الجميلة تُقدم لنا لبن الأغنام بعد أن قامت بطقوسها الصباحية من مسحٍ وكنس، وصِدقاً تعلو وجوههم البسمة منذ مجيئي.

عذراً أبي! سأعاود مراسلتك لاحقاً؛ فقد بدأ اللبن يبرد.

تم...

إرسال عبر الواتساب.

•••

في نهار ذات اليوم وقد جلسنا تحت ظل شجرة اللالوب القائمة وسط المنزل؛ في محاولةٍ منا للإحتماء من هجير الشمس وقد كَشّرت عن أنيابها.

عمتي قد أعدت القهوة مُسبقاً قبل أن تذهب لبيت جارتها، جدي بدأ يشفط قهوته من الفنجان مُصدِراً صخباً على طريقة أهل الريف وهو يستمع لإذاعةِ (دَبَنْقَا) ليكون بذلك قد ذهب بعقله بعيداً عنا، أما جدتي فقد بدأت تتلذذ بقهوتها وهي ممددة ساقيها على بساطٍ من السعف (البِرشْ) مما جذبني الأمر لأن أفتح حواراً من النوع الذي أحب، سألتها أن حدثيني عن الحب في شبابكم؟ تَبَسّمتْ بسمة تنم عن حياءٍ ثم أجابت وهي ترتشف من بحر ذكرياتها: "الحبُ هو جدكَ يا صغيري"، أدركتُ حينها أن جدتي قد إختصرت الرومانسيةَ في جملةٍ، زغتُ ببصري ناحية جدي فإذا ببسمةٍ خالية الأسنان قد إرتسمت على وجه نحت عليه الزمان، لم أفهم هل كان جدي يسترق السمع؟ أم أن كلمات جدتي هي التي تسللت من بين كلمات المذيع لتغازل أُذينَ قلبه قبل أُذن رأسه.

ثم خاض الجد في القول متغزلاً "الحبُ هو صاحبة الخمار والتوب بلا أحمرٍ أو أصفرٍ في الوجه، فقط سواد الكحل الذي أضاف جمالاً لعين المها على جمالها وصوت الكناري الأخاذ."

هنا علم "نبيل" أن الحب لا يشيخ كما تشيخ الوجوه ويلعبُ بها الزمان، إنما الحب أصله ثابت وأسبابه تتفرع.

•••

طق.. طق.. طق.. ثلاث تصفيقاتٍ ناحية باب المنزل المصنوع من الحصير.. "نبيل" يفتح الباب.

- سلامُ على أهل الدار.
- بل سلام على قلوب أهل الدار، ثم من أنتِ؟.. "نبيل يسأل".
- أنا "جميلة ".
- "جميلة "! أهذا الإسم أم الصفة؟
- بل كذا سمّاني أبي.
- أجاد الأب التسمية كما أجاد الربُ الخِلقة.
- من الزائرُ يا "نبيل"؟.. "الجدة تسأل".
- ملاكٌ قد ضلّ طريقه إلى الجنةِ يا جدتي، أو أن الربَ أنزله من السماءِ إلينا؛ ليؤكد أن في الجنة كواعب[1] أترابا وعُرباً أترابا من الحور العين.
- قال الجدُ متبسماً: يا ولد، يا خطير.

لم تحتمل فتاة الريف هذا الكم من الغزل وبهذا الأسلوب، ففرت بجلدها وبقي القلب يثمل من كلمات هذا النبيل.

جاء الليل والقمر في الأفق متكور جميل، هدأ الكون إلا فؤاد هذا النبيل المستلقي على فراش مِخملي أو كما يُخيل إليه، عقله ترك كل ما يدور في الكون وتمسك بسؤال واحد متكرر: هل سأراها مرة أخرى؟

بعد ساعات قضاها مُستلقياً على فراشه، أخيراً قرر أن ينتشل ذاته من بحر الأمنيات، خرج وهو لا يدري أين وجهته، فقط كان مُتمسكاً بفكرةٍ أن يرى من سرقت فؤاده، كان كلما وجد فتيات مُتجمعاتٍ بدأ يقترب منهن وتصارع عيناه ظلمة الليل للبحث عن وجهها بين الأوجه، حينها بدأت بعضُ الفتيات تطلق عليه لقب "المجنون" جراء ما يفعل.

---

[1]- **كَوَاعِب: نساء كواعب، أي أثداؤهن قائمة لم تتكسر فهن عذارى نواهد...**

وفي أحد الشوارع المُنارة بضوء القمر مُختلطاً بشيء من ضوء اللهيب المُتصاعد والناتج من حرق الأوساخ وسط الشارع، وقف "نبيل" فجأة وقلبه يتراقص على إيقاع صوتٍ قادم من خلفه حاملاً جملة: "نلتقي غداً في المدرسة يا ندى" عندها علم "نبيل" أن هذا هو ذات الصوت الملائكي، ابتسم ابتسامة المنتصر الذي وجد ضالته وهو يلتفتُ نحوها، رآن عليهما صمتٌ طويل وكل منهما ينظر إلى الآخر، بدأ يسير نحوها على مهلٍ وهو يراها متوترة تُخرج قلماً وتكتب على هامش كراستها شيئاً ما.

إقترب منها أكثر فعلم أنها مصدر الإضاءة وليست النار التي في وسط الشارع أو القمر الذي في السماء، كانت متوسطة الطول والقوام، شعرها ناعمٌ أسودٌ لامع كالسِناج بالزيت، واسعة العينين، رموشها كغابات الأمازون كثافة، سمراء الوجه، ملساءُ الخدود،عميقة الوجنتين، بيضاء الأسنان، منفردة الجمال.

مدّ "نبيل" يده لينال شرفَ ولذة مصافحتها، زاد الأمر من توترها فأسقطت قصاصة ورقية ثم ركضت نحو المنزل المجاور ليكون بذلك قد علم أنه مكان سكنها.

سابق "نبيل" الريح إلى القصاصة، انحنى وحملها بيده، "جميلة" تنظر إليه خِلسة؛ للتأكد من أنه فعل ما تتمنى، اقترب "نبيل" من مصدرالإضاءة الثاني (النار) فتح القصاصة الورقية ليجدها قد كتبت (غداً بعد نهاية اليوم الدراسي عند شجرة النيم خارج القرية) تبسّم وهو لا يدري أهذا موعدٌ أم مكيدةٌ من فتاة تفضل الهرب كلما رأته.

تلذذ قلب "نبيل" بتلك الكلمات على الورقة، إستنشق بأنفه آثار عطر يديها على الورقة، ثم طبع عليها ما أُتيح له من قُبلات "قبلة لكل حرف" سار إلى منزله وهو يقفز كما يقفز الطفل فرحاً بلعبته المهداة إليه، حينها تأكد شك ذات الفتيات اللاتي وصفنه بالجنون فما هذا بتصرف من له عقل، لكن "نبيل" علم جيداً أن هذه الورقة في قبضته

هي عزاؤه لهذا الموقف، دلف إلى غرفته، فتح حقيبة سفره وأخرج منها أجمل ثيابه؛ تأهُباً لموعد الغد، لمّع حذاءه وإن كان سيتسخ بمجرد أن يُغادر غرفته، ثم إرتمى إلى سريره واحتضن وسادته كما يحتضن العاشق عشيقته، قلبه قد ثمل بلقاء هذه الفريدة، وحال عينيه يحكيا أنهما لم يريا هكذا جمال، نام والورقة ما تزال في قبضته لتكون أول ما يفتح عليه عينيه غداً.

ثم...

تررررن.. تررررن.. تررررن...

الساعة تشير إلى الخامسة فجراً.

- قُم يا النائم، وحِد الدائم، قد حان وقت الصلاة.. " هكذا ردد والد نبيل"

استيقظ " نبيل " فزِعاً: أبي ماذا تفعل هنا؟

- ماذا تقصد بقولك هنا؟ وهل كنتُ يوماً بهذا الوقت غير هنا؟
- ثم متى وكيف عدتُ أنا إلى هنا؟

صمت الأبُ وفي عينيه نظرة ريبة تجاه ابنه.

- أين جدي وجدتي يا أبي؟
- تسألني وكأنك لم تأتِ معي البارحة لزيارة قبريهما.
- حسناً أبي، أين هي.

قبل أن يُكمل "نبيل" سؤاله، تَفَقّد يده فلمّا لم يجد الورقة.

إستدركَ أن الرحلة بأكملها عبارة عن حلم، وأنه هو الحالم العاشق، العاشق الحزين بل الحالم الحزين، وخيوط الفجر عبر النافذة تطلعُ على حزنه العميق.

نزع "نبيل" عن نفسه غطاء نومه مكتئباً، مُجهداً من جهد الحلم، خرج فتوضأ ولم ينتبه أنه لم يُحسن الوضوء، ثم خرج برفقة أبيه إلى المسجد، حيث أمر الإمام بمساواة الصفوف، سد الفُرج وإقامة الصلاة، ثم قد كبر الإمام (الله أكبر) وكل المصلين من خلفه قد رددوا (الله أكبر) إلا "نبيل" الذي أخطأ القِبلة واللفظ قد ردد (جميلة هي حلم فقط) ليكون بذلك قد أشرك مع الله طيفاً حسنُ الوجه.

سلّم الإمام ثم كل المصلين من خلفه، تصافح الجميع أن تقبل الله و"نبيل" يردد "مِنا ومنكم" كمَن صدقَ وخشعَ في صلاته.

عاد "نبيل" ووالده الأستاذ "عبدالعزيز" من صلاة الصبح التي تمناها أن تكون في القرية برفقة جده ليواصل مع فتاة أحلامه قصتهما التي بدأت للتو، دخلا المنزل بوجهين أحدهما بشوش يستبشرُ خيراً بهذا الصباح الجميل والآخر مكتئبٌ يتمنى أن يكون استيقاظه حلماً وحلمه يكون حقيقة.

داخل المنزل المطلي بالبنفسج الجميل ومخطط بقليل من الأبيض، كل الغرف مبنية على الجوانب تفتحُ جميعها على حديقةٍ صغيرة وسط المنزل، خمسة أوستة مقاعد فوق النجيلة المُحاطة بأزهارٍ شتى مغروسة في أصايص تحت ظلال شجر المانجو، الجوافة، البرتقال والليمون.

يحكي "نبيل": أشرقت الشمس بدلالٍ وجمال، جلستُ مع أبي، أمي وأختي "معزة"؛ نشربُ شاي الصباح ونتلذذ بالكعك الذي أعدته أمي بمهارة، كنتُ قد تهيأتُ لمرافقة أبي إلى مكتبته فهو صاحب أكبر مكتبة ثقافية في مدينة نِيالا "بحر المعرفة " التي تحوي العلم القديم والجديد فوق رفوفها، بها الكتب الأفريقية، العربية، الإنجليزية والفرنسية في المجالات الأدبية، الدينية، العلمية، الفلسفية وغيرها من المجالات، لأن الثقافة عملية شمولية لا تقف عند نوع واحدٍ من المجالات وذلك للمساعدة في نهضة الشباب بعقول ممتلئة منفتحة.

وصلتُ انا وأبي إلى المكتبة بعد أن أوصلنا "معزة" إلى مدرستها كعادة كل صباح، فتحتُ البوابة الرئيسية، مررنا عبر الحديقة التي كانت تحوي أزهاراً وعصافير صغيرة ملونة بجمالٍ في أقفاص، وأيضاً مقاعد، كراسي، وترابيز، لتوفير البيئة الملائمة للقُراء الذين يأتون، كما أنه توجد كافتريا صغيرة جانب البوابة نحصل منها على الشاي، القهوة، العصير، والخبز، المحشي –السندات- كوجبة خفيفة فقد كنا نطبق مقولة ابتدعتها بنفسي وهي "ملء البطون قبل العقول" للمساعدة في زيادة التركيز فمن الصعب القراءة ببطون خاوية.

و كعادة كل صباح كان "رِينق" هو أول القُراء الحاضرين إلى المكتبة.

"رِينق" شاب سوداني جنوبي، أو الأصدق أنه جنوبي السحنة واللسان إلا أنه من مواليد مدينة نِيالا لكنه يكثر السفر إلى أرض أجداده متى ما وجد فرصة، "رِينق" شاب طويل القامة، نحيل الجسم، فاحم السواد، منفتح الفكر لكثرة قراءته وإطّلاعه، مما يجذبني لمناقشته بين الحين والآخر في القضايا السياسية والإقتصادية للبلدين، وقضية إختلاف الأديان داخل الدولة الواحدة، وكان كثيراً ما يُحدثني عن الجنوب وعن الغابات الإستوائية والأمطار والجبال ويحدثني عن فِيفيان وميري ومِلوال وعن ثقافات الشعب الجنوبي.

ألقى علينا التحية بلكنته الجنوبية "سلامَ ليكم" على الرغم من كونه مسيحياً إلا أنه حيّانا بتحية الإسلام، أخذ كتاباً من بين الكتب على الرف، ثم جلس في مكانه المعتاد عند الطاولة الأخيرة في الركن ليغوص في بحور المعرفة.

جلس أبي على كرسي مكتبه يراجع بعض الأمور الحسابية، أما أنا فكانت رغبتي في هذا الصباح أن أقرأ لأحد الكُتاب السودانيين، العديد من الكتب على الرف، لفت إنتباهي كتاب "بنات الخرطوم" في الرف الأخير على الجانب الأيمن للدكتورة الصحفية "سارة منصور" فإخترته من بين الكتب وانفردتُ به.

•••

في أمسية ذات اليوم بدأ البؤس يتسلل إلى نفسي بعد أن أدركت حقيقة أن "جميلة" هي حلم ليس إلا، ولا تتعدى كونها فتاة أحلامي فقط، فقررتُ أن أنتشل ذاتي من مستنقع الحزن، جلستُ أمام المنزل؛ ليُسعدني سلامُ السابِلة أمامي، أمام المنزل المقابل طفلة صغيرة بعمر الثامنة خرجت تلعب بدلال، تركض وتقفز مع نفسها، تغني وترقص وتمرح، حتى جاء ابن الجيران الذي يكبرها بعام وبضع أشهر، تصافحا ولم يلحظا أنهما يقفان فوق القمامة فقد فاحت رائحة حبهما وطغت على رائحة روث الأبقار من تحتهما، كان واضحاً أن هناك علاقة حبٍ تُطبخ على نار هادئة وبأيادي طفولية بريئة، ثم فجأة ومن حيث لا أدري وجدتُ طفلين قربي، لم أرغب في أن أتدخل في طبيعة علاقتهما ولكن حدسي يُخبرني أنهما أخَوين من شدة الشبه بينهما، جلسا قربي دون سلام، فجاءت فراشة زاهية الجمال، تعلو وتنخفض بدلال.

- هل تلدُ الفراشةُ أم تبيض؟.. " الأخ الصغير يسأل "
- أظنها تُزهر، ألا ترى جمال جناحيها؟ .." هكذا أجاب الكبير "

عندها جذب إنتباهي أن الطفل الكبير كان يقبض (جرادة) بيده، بدا أنها تلفظ آخر أنفاسها؛ فقد كان يلعب ويستمتع بتعذيبها، إبتسم ببراءة ثم قطع إحدى الأرجل الخلفية للجرادة، غرسها في الأرض ثم نظر إليَّ وقال دون أن أسأله: هذا الجزء سينمو ليصبح شجرة جراد ثم هذه الشجرة سوف تثمر مجموعة من الجراد الكبير.

- **قلت**: كبير أم صغير؟
- **رد كالحكيم**: لا، بل كبير ثم هذا الجراد الكبير سوف يبيض وينتج كميات من الجراد الصغير.

قد أجاب بمنطق الأطفال، ثم أخذ الجرادة ذات الرجل الناقصة وقد تهيأ للركض كعادة الأطفال، لكنه نظر إليَّ برجاء هذه المرة وقال: لا تنسى أن تسقي الشجرة حتى تثمر.

- حسناً أعدك بذلك، يبدو أنني قد إقتنعتُ بما قاله حقاً!

لكن لا تنسى أن تأخذ أخاك معك؛ فقد صِرت أخشى على نفسي منكما، أخذ بيد أخيه الصغير ثم ركضا بعيداً بعد أن غرسا الأمل، ثم أُذِنَ للمغرب فحملتُ نفسي ودخلت المنزل وقد تركنا الغرسة "رجل الجرادة" لمصيرها المحترم.

•••

مضت ساعات يومي الأخير في مدينة نِيالا، غداً سأسافر إلى مدينة زالنجي، بعد أن أُعلنت نتائج التقديم للجامعات وتم قبولي في كلية الطب جامعة زالنجي، ينتابني شعور القلق مغموراً بشعور الرغبة في خوض مغامرة جديدة في مكان جديد عليَّ.

قضيتُ نهاري في التجهيز للسفر ولَيلِي في الأُنس والسَمَر مع أسرتي، ثم في الصباح الباكر تحركنا بسيارة أبي إلى موقف الباصات السفرية عند موقف الجنينة غربي المدينة.

حجزتُ تذكرة السفر، ودعتُ عائلتي وأنا أحاول أن أُخفي عنهم شعور الحزن على فراقهم، على عادة الأُسرة السودانية حيث يظل الحديث عن المشاعر والأحاسيس بين أفراد الأسرة فيه شيء من الخجل أو الخوف ربما، نحن شعبٌ نحمل الطيبة والمحبة في قلوبنا ولكن لا نلفظ بها لبعضنا البعض، الرجل في المنزل يخجل من أن يُنادي زوجته بإسمها أمام أطفاله فيناديها بقوله "يا وَلِيه" لترد عليه هي بقولها "يا راجل"، نحن شعب يخجل فينا الزوجان من أن يمشيا في الطريق العام جنباً إلى جنب فيتقدم الرجل وتتبعه الزوجة من الخلف وكذلك الأخ في المقدمة والأخت من خلفه.

ليس عيباً أن نخبر الأب، الأم، الإخوة أو الصديق القريب بحبنا وذلك أن النبي الكريم كان جالساً مع صحابته فَمَرّ بهم رجل ألقى التحية ثم واصل سيره، فقال أحد الجالسين: والله يا رسول الله إني أحب هذا الرجل، فلم يكن من النبي إلا أن **قال له**:

(إذهب وأخبره...)

"إن إظهار المحبة ليس أمراً صعباً، بل هو أسهل بكثير من كتمها في النفس".

تضج ممرات الموقف بصبيةٍ تصدح حناجرهم بما يبيعون "مناديل، ورنيش، كمامات، نظارات، فرش ومعجون أسنان".

تحرك الباص في تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً، هي أول مرة أسافر فيها خارج حدود ولاية جنوب دارفور، كنت معتاداً على السفر إلى محليات الولاية فحسب (كأس، عد الفرسان، بُرام الكلكة، الرهيد وبُلْبُل).

صافرات الباصات المسافرة تُشكل موسيقى مرحة مُعلنة عن الرحيل، لأكون بذلك مُودعاً مدينة نِيالا حيث الصُحبة والتجمعات في الكافيهات، وادي برلي، شارع تكتيك، شارع المطار، جبل نِيالا، جامعة نِيالا (المركز وموسيه) والمنتديات الثقافية والفكرية.

كان الطريق سلساً من نيالا مروراً ببُلبُل، كأس، طُور حتي نيرتتي "التي تعني القطعة الخضراء باللغة المحلية" لتبدأ بعد ذلك وعُورة الطريق ومعاناة المسافرين من تعبٍ ونهبٍ.

أجلسُ على المقعد الذي خلف السائق مباشرة ويجلس قربي رجل يبدو في الخمسين من عمره، شعره الأسود الناعم تتخلله خصلات بيضاء، حليق اللحية، خفيف الشارب، يضع نظارة طبية يطالع من خلالها صفحات الكتاب الذي بين يديه، وعلى عادتي تجذبني الكتب ورائحة أوراقها فسألته عن اسم الكتاب فقال بصوت هادئ: "المأدُبة النبوية".. فأتت ذكرى تُخبرني أنه ذات الكتاب الذي قرأته قبل عام والذي يتحدث عن حياة النبي: كيف يأكل، كيف يشرب، كيف ينام، كيف يمزح، كيف يضحك، كيف يمشي، كيف يلبس.

فتأسفتُ له على مقاطعتي له.. خلع نظارته، مد يده لمصافحتي وقال متبسماً: ما اسمك أيها الشاب؟

- اسمي " نبيل " أيها العم.
- نادني "إدريس" إن شئتَ.
- حسناً أيها العم "إدريس".. "علقتُ ضاحكاً "

كان رجلاً طيباً، بشوش الوجه، هادئ اللفظ، واسع البال والمعرفة، بدأ يحدثني عن أسماء المحليات والقرى التي كنا نمر بها في طريقنا، أذهلتني جداً حصيلته المعرفية الكبيرة عندما بدأ يذكر تاريخ النشأة لكل منطقة نمر بها واسم القبيلة السائدة فيها، فسألته دون خجلٍ عن عمله، أجابني بأنه دكتور في جامعة زالنجي حاصل على درجة بروفيسور في الدراسات السودانية وعمله يقتضي أن يعرف كل هذه المعلومات عن كل منطقة من مناطق السودان، كما أخبرني أنه يُجيد عشراً من اللغات المحلية لعشر قبائل مختلفة في أرجاء السودان، صِدْقه كان واضحاً في هدوء صوته ونظرة عينيه.

توقف الباص فقال العم "إدريس": هيا أنزل لقد وصلنا محطة "اتنين كيلو" البوابة الشرقية كانت الساعة تُشير إلى الواحدة ظُهراً، كنت أشعر بالغُربة الشديدة ولا أعلم إلى أين أتجه، سألني البروفيسور عن وجهتي فأخبرته أني ليس لدي معارف في هذه المدينة لذا سأذهب إلى سكن الطلاب ولا أعلم الطريق إليه حتى، ثم ببسمةٍ مرحة طلب مني أن أذهب معه إلى بيته والبقاء معه حتى أُكمل إجراءات التسجيل للجامعة والسكن الداخلي، كادت نفسي أن تأبى لكنه رفع يده مؤشراً لأحد سائقي الركشات طالباً منه الإقتراب، ثم حمل حقيبتي ووضعها في الركشة واتجهنا إلى منزله بحي الحصاحيصا غربي الجامعة التي مررنا بمحاذاتها، ولجنا المنزل فرحبت بنا زوجته وابنتيه، تعرفنا ببعضنا البعض، ثم سألت الزوجة البروفيسور عن نتائج الفحص الطبي، فقال: إن الوضع مستقر ولا داعي لإجراء عملية، فقط تكفي النظارة الطبية وهذه القطرة، ففهمتُ أنه ذهب إلى نيالا من أجل تلقي العلاج وهذا يوضح سبب إرتدائه للنظارة.

أدرَكَنا النعاسُ مُبكراً تلك الليلة بعد رحلة السفر المُتعِبة.

ثم في الصباح التالي إصطحبني البروفيسور معه إلى الجامعة، أخبرني عن خطوات التسجيل وذهب هو لشأنه، كانت الجامعة واسعة، أعداد غفيرة من الطلبة في كل مكان، كنت أشعر بالوحدة رغم هذا العدد من الناس، لابُد أنهم يشعرون بالتوتر مثلي، طمأنتُ نفسي بذلك، بدأتُ أسير وأنا في كامل تأنقي ببنطالي الجينز الأسود وقميصي السماوي، أسير بين هذا الكم الهائل من القاعات والمكاتب الإدارية بحثاً عن نقطة البداية للتسجيل، بينما كنت أمشي بتوتر وأنا أتلفتُ يميناً ويساراً سمعتُ شخصاً **يقول**: "ليتجه كل الطلبة الجدد إلى قاعة الدكتور يوسف"، فأسرعتُ البحث عن القاعة التي تحمل هذا الإسم حتى وجدتها قاعة ضخمة وراء المسجد، لقد مررت بها قبل قليل لكني لم ألحظ الإسم المكتوب فوق الباب، دخلتُ إلى القاعةِ التي كانت مكتظة بالطلبة رغم وسعها، يجلسون بصمتٍ تتخلله بعض الهمهمات، فهم مازالوا لا يعرفون بعضهم البعض، جلستُ في الصف الأخير فلا مكان في الأمام، مرت نصف ساعةٍ من الإنتظار، جاء أربعة أشخاص بعمر الشباب صعد أحدهم المنصة وإثنان منهم على الجانبين وواحدٌ يمشي في الممر الفاصل بين جانبي القاعة، الغريب في الأمر أن الأربعة أخرجوا هواتفهم وبدأوا فوراً يلتقطون الصور وتعلو وجوههم إبتسامة أقرب للضحك، كان يجلس قربي طالب تعرفتُ عليه في داخل القاعة، اسمه "عَلِي" من أبناء مدينة زالِنجي، أخذ "عَلِي" بيدي وطلب مني أن نخرج من القاعة بسرعة، تعجبتُ طلبه هذا لكنني فعلتُ وخرجنا من الباب الخلفي للقاعة ثم سألته عن السبب، فقال: إنه فخ يا عزيزي فهؤلاء الأربعة الذين يلتقطون الصور ما هم إلا طلبة من المستويات المتقدمة، وأما الطلبة الذين تُلتقط لهم الصور يطلقون عليهم لقب "رهائن" وتستمر حفلة السخرية عليهم إلى نهاية العام.

- وكيف تعرف كل هذه الأمور؟
- فضحك بصوت عالي وأردف: المهم أننا لسنا ضمن الرهائن.

ثم بدأنا في إجراءات التسجيل وعندها علمت أن "عَلِي" أيضاً تم قبوله بكلية الطب معي وبذلك أكون قد تعرفتُ على أول صديق ورفيق دراسة في الجامعة.

وبعد أن أكملتُ الإجراءات عند الساعة الرابعة عصراً أخبرني البروفيسور أننا سنذهب إلى موقف العربات السفرية القادمة من مدينة الجنينة لإستقبال ابن صديق له قادم من مدينة الخرطوم.

- إن كان قادم من الخرطوم فلماذا نستقبله عند موقف السيارات القادمة من مدينة الجنينة؟ "سألتُ البروفيسور".
- فأجاب: أنه تحركَ بالطائرة من الخرطوم ولكن مدينة زالنجي ليس فيها مطار مدني لذلك تهبط الطائرات في مدينة الجنينة ثم يستقل الركاب العربات للوصول إلى مدينة زالنجي.
- ولماذا لا تهبط الطائرات في مدينة نيالا وهي أقرب للخرطوم من مدينة الجنينة؟
- صحيح ما قلت، لكن الطريق من مدينة الجنينة إلى زالنجي أقرب من نيالا إلى زالنجي، كما أنه طريق مرصوف بالأسفلت بالتالي ليس شاقاً على المسافرين كطريق نيالا إلى زالنجي.

وصلنا موقف العربات السفرية وفي ذات اللحظة توقفت سيارة (إستايركس) رمادية اللون أمامنا، نزل الجميع ومن بينهم شاب متوسط القامة وفي مثل عمري، بدأ يتلفتُ يميناً ويساراً كأنه يبحث عن شخص، أشار العم "إدريس" تجاهه **وقال**: إنه هو...

إقتربنا منه **وقال العم**: أهلاً بك يا ابن صديقي، تبسم الشاب **وقال**: أهلاً يا بروفيسور، ثم تصافحنا وعرّفنا البروفيسور إلى بعضنا بقوله: يا "نبيل" هذا "أحمد".. ويا "أحمد" هذا "نبيل" أما المفاجأة هي أنكما ستكونان رفيقان في الدراسة، ضحكنا فرحاً بهذه المفاجأة ثم عدنا إلى منزل العم "إدريس". يومها قد نمتُ مبكراً واستيقظت اليوم التالي بعد أن أشرقت الشمس، كان "أحمد" مُستليقاً على سريره يتصفح هاتفه، **قال بمزحٍ**: يبدو أنك تحب النوم يا "نبيل"، ضحكتُ ثم قلتُ نعم وأنا أخفي خلفَ إجابتي أني قد صرتُ أحبُ النوم فقط لأحظى برؤية "جميلة" التي صارت ملكة أحلامي.

كانت الساعة الثامنة صباحاً عندما خرجتُ مع "أحمد" إلى الجامعة؛ لأساعده في إجراءات تسجيله بحُكم أني قد خضتُ هذه التجربة قبل يوم فقط.

مضت خمس ساعاتٍ حتى تمكنا من إكمال كافة الإجراءات، وبعدها جاء إلينا "عَلِي" بعد أن هاتفته وطلبتُ منه المجيئ، إتجهنا إلى النشاط وجلسنا عند بائعة الشاي نرتشف القهوة نَخْب التعارف، عرفتهما على بعضهما وبذلك يكون كل واحد منا قد تعرف على أول رفيقين له في الجامعة.

مرت ثلاثة أسابيع على بداية الفصل الدراسي الأول، غادرنا منزل العم "إدريس" إلى السكن الطلابي بعد إكمال الإجراءات اللازمة، ثلاثتنا بذات الغرفة: أنا، "أحمد" و"علي" الذي رفض البقاء في منزله وقرر القدوم معنا إلى السكن الطلابي بحجة أنه يريد خوض تجربة الحياة الجامعية من كافة النواحي.

يقع مبنى السكن الطلابي -داخلية السلطان علي دينار- شرقي المدينة، يوجد ميدان لكرة القدم يفصل بينه وبين سكن الطالبات -داخلية جبل مرة- كما يوجد مضمار لسباق الخيل خلف سكن الطلاب.

كانت أياماً كافية لنتجول في كافة أنحاء المدينة ونضع أقدامنا على كل شبر فيها، زالنجي مدينة صغيرة خضراء، جميلة تجلت فيها بدعة الخالق، تجذب الأنظار كأن بها سحرٌ يغازل القلوب ويداوي النفس من كل سوء بها، هي مدينة كأنها جنة الرب في الأرض، تُحيطها وتحتضنها سلسلة من الجبال التي يغازلها الضباب برقة من الأعلى، كما يزداد سحرُ جمالها بخضرة أشجار المانجو والحَراز، السيسبات والبان.

رفيقنا "علي" هو دليلنا في هذه الجولة السياحية فهو من أبناء المدينة ويعرف كل أزِقَتِها كأنها جزء من منزله.

مع مرور الأيام تشكلت صداقة قوية بيننا وصارت لنا ألقابٌ نشتهرُ بها بين الطلبة في الجامعة، كان "أحمد" كثير الحديث عن السياسة والإقتصاد كأنه عضو في البرلمان فأطلقنا عليه لقب "برلماني"، أما "علي" فكان يحمل نُتوءاً لحمياً صغيراً كالحَلمة أسفل أذنه يشبه نتوء الهيدرا عندما تتبرعم لتتكاثر لا جنسياً فأطلقنا عليه لقب "بُرعُم"، أما أنا فقد كنت سريعاً في تكوين الصداقات والحفاظ عليها لذلك أسموني "نبيل فريندو" ويعني "الصَديق"، كما صار لدينا صديقة جديدة الآن هي "أمل" وإكتفينا بإسمها فقط لأنها ليست من النوع الذي يحب الألقاب بدلاً عن الأسماء.

محاضرات وإستذكار، لعبٌ وأُنس، غناءٌ ورقص تراثي، مرحٌ ومتعة، هكذا كانت عنواين أيامنا الخوالي، أيام مضت ونحن نسعى فيها لفهم الحياة الجامعية وحياة السكن الطلابي.

قطار الزمان مواصلٌ مسيره وبسرعة البرق إنقضت أيام وشهور وإنقضى بإنقضائها الفصل الدراسي الأول فإنقضت معه ذكريات ولحظات سعيدة وحزينة وأخرى عادية.

لا مرح بدون حزن، ولا راحة بدون عناء، ومع بداية الفصل الدراسي الثاني ساءت الأمور في السكن الطلابي وبدأت سلسلة من التحديات تعترض راحة معيشتنا: مياه الشرب الملوثة، الحمامات والدورات المتسخة، إنقطاع الكهرباء المستمر، إفتراش الأرضيات لعدم توفر أسِرة كافية، تدهور الصحة وإنتشار الأمراض (الملاريا، إلتهاب المسالك البولية، جدري الماء) ومع مرور الوقت وإزدياد الوضع سوءاً بدأت حالات الضجر والإشمئزاز تنتشر بين الطلبة فتم تكوين لجنة طلابية من خمسة أشخاص، ثلاثة من الطلبة القدامى "ياسر، أنس، حبيب" واثنين من الطلبة الجدد هما "برلماني" وطالب آخر من كلية الإقتصاد لقبه " وَن-دَي" وكان الغرض من هذه اللجنة هو توصيل مطالب الطلبة إلى إدارة الصندوق القومي لرعاية الطُلاب والعمل على حلها بأسرع وقت.

برلماني: في أمسية الخميس بعد العشاء كما العادة نتوافد إلى الساحة الفاصلة بين جناحي العمارة نتراقص على إيقاعات الأغاني التراثية المختلفة والشعبية السودانية، جاء إليّ "وَن-دي" وأخبرني أننا سنذهب بعد غدٍ إلى إدارة الصندوق ونطرح لهم مطالبنا.

ثم في صباح السبت الهادئ، أشرقت الشمس بدلالِ أنثى تُطالع حبيبها من بعيد، تكشف عن وجهها حيناً وتخفيه خلف السُحب حيناً آخر، خرجنا من الداخلية كلجنةٍ خماسية نقصدُ مبنى الصندوق القومي الذي يقع شمالي غرب سوق زالنجي الكبير، عبرنا البوابة ثم إلى الصالة الرئيسية، بها كراسي على الجوانب وفارغة من الوسط، تفتح جميع المكاتب في هذه الصالة، يقع مكتب المدير عند نهاية الجانب الشمالي.

طرقنا الباب فأذِن لنا بالدخول، كان المكتب واسع، توجد ثلاجة صغيرة عند الركن وتربيزة مكتب فخمة أمامها كرسيين وخلفها كرسي عملاق فخم يجلس عليه رجل خمسيني العمر ممتلئ الجسد، يضع نظارة طبية صغيرة على أنفه الكبير، أصلع عند مقدمة رأسه، نظر إلينا من فوق نظارته **وقال**: مرحب، عندكم مشكلة؟

- لدينا بعض المطالب يجب أن تطلع عليها "هكذا ردّ ياسر".

بدأ المدير يحرك ردفيه على مقعده يميناً ويساراً كأن أحداً يوخزه بإبرةٍ من أسفل.

- ولماذا لم تخبروا مشرفكم بمطالبكم؟ وهو بدوره يتكفل بها، "هكذا سألنا بلا مبالاة" وهو ينظر في كمبيوتره، ثم مباشرة أحسستُ برائحةٍ قذرة تغتصب أنفي فعلمتُ سر تموجه الغريب على المقعد، لقد أطلقها بلا صوت.
- حدّثنا المشرف ولكنه يتكاسل ولا يحمل الأمر بجدية من يُعاني منه " أجاب ياسر".
- حسناً ما هي مطالبكم؟

قدّم إليه "ياسر" ورقة بها كافة المطالب التي اتفق عليها الطلبة أجمعون.

- حسناً، سندرس طلباتكم هذه ونعمل على حلها بأسرع وقت، والآن إذا سمحتم فلديّ إجتماع مهم.

ثم خرجنا من عنده نتنفس الهواء النقي من قاذورات بطنٍ منتفخة، عدنا إلى السكن وتَكَأكَأنا[٢] مع الطلبة فأطلعناهم على مُخرجات الإجتماع مع مدير الصندوق ثم افرنقع[٣] الجميع.

مرّ إسبوعان على وعد المدير ولم يتغير شيء حتى الآن، لا الكهرباء إستمرت، ولا المياه استُبدلت بمياه نقية، بل إن عاملات النظافة تم تقليل أيام عملهن من سته أيام في الأسبوع إلى يوم واحد بحجة أن المالية فارغة ولا توجد رواتب لهن.. "هكذا أجاب المدير لما قابلناه للمرة الثانية".

عدنا إلى السكن وبعد تشاور طويل مع الطلبة جميعاً قررنا أن الحقوق إن لم تأتِ بحديث لبقٍ فلا بد أن تقتلعها الأيدي، هي المظاهرة إذاً، سِلمية تعلوها الرايات البيضاء.

---

[٢]- تكأكأ: اجتمع

[٣] - افرنقع: تفرق

نبيل فريندو: في صباح الخميس إستيقظت الداخلية على هتافات "ياسر، ون-دي، بُرعُم وبرلماني" وهم يرددون "طالب، طالب من حقو يطالب"، "الصندوق القومي يُهين ولا يُعين"، بدأت شرارة المظاهرة من داخلية السلطان علي دينار وعندما وصل الموكب إلى مبنى الصندوق كان قد إنضمت إلينا مواكب من الداخليات الأخرى (داخلية حجار، جبل مرة، شيماء، رُفيدة و الإستراحة) تجمهرنا أمام البوابة لعشرين دقيقة من الهتافات والرايات العالية فخرج إلينا مدير الصندوق وبعض معاونيه، صعدوا فوق الصندوق الخلفي لعربة البوكسي المركونة شمال البوابة، رفع المدير يده فتوقفت الهتافات ثم **قال**: يا شباب الجوطة ما بتجيب نتيجة، لقد جاءنا أفراد لجنتكم بالمطالب وأخبرناهم أن المالية لا تكفي لإجراء تغيير حالياً لذلك فإن عليكم أن تفضوا هذه المظاهرة فوراً.

صعد "ياسر" – قائد المظاهرة – على كومة الطوب على الجانب الأيمن للبوابة، نظر إلى المدير ومعاونيه **وقال**: لن نرضى بأن نُعايش القاذورات والأمراض بعد اليوم ثم رفع رايته وهتف عالياً "طالب، طالب من حقو يطالب" ثم ردد كل الطلبة خلفه حتى قطعت هتافاتنا وصول عربات اللاندكروزر وعربات مكافحة الشغب التابعة للبوليس، أحاطت خمس سيارات المكان كل سيارة تحمل ما لا يقل عن عشرة عساكر يوجهون الدوشكات وأسلحة الجيم ثلاثة نحونا، وآخرون يحملون بأيديهم العِصِي وسياط جلدية، خرج الضابط المسؤول **وقال**: فضوا المظاهرة يا شباب.

فتقدم "برلماني" نحو الضابط، أخرج قلماً دون أن ينزع غطاءه ثم رفع قلمه عالياً بوجه الدوشكات وأسلحة الجيم ثلاثة، أنا و"بُرعُم" وباقي الطلبة جميعاً توجهنا بأقلامنا نحو الدوشكات وفعلنا كما فعل "برلماني" مؤكدين أن المظاهرة سِلمية لا عدائية.

ثم قال الضابط: إذا لم تفضوا هذه المظاهرة فسوف...

وقبل أن يكمل جملته قاطعته هتافات عالية من الخلف .. موكبنا الأخير قد وصل، موكبٌ من طلبة السكن الخارجي، أبناء المدينة متضامنون مع قضية الطالب المعاني من سوء الوضع في السكن الطلابي، تأخروا لأنهم مَرُّوا بالجامعة بخطةٍ متفق عليها وأحضروا معهم مدير الجامعة الدكتور "عيسى الوليد".. صار عساكر البوليس بين موكبين من الطلبة، موكب في الأمام وموكب من الخلف يردد ذات الهتافات "طالب، طالب من حقو يطالب" ثم تقدم الدكتور "عيسى الوليد" وقف قرب مدير الصندوق **وقال**: "بإسم السلمية وبإسم الجِدية، التحية لكل مناضل وثائر، والعارعلى كل مظلوم متخاذل والويل لكل ظالم متكابر، بإسم الجامعة فإني أثني على نضالكم هذا، أُثنِي على أصواتكم العالية لطلب حقٍ لكم.. أيها الثائرون لأجل الحق، لكم ما طلبتم وشئتم وإنه لحقكم ما قلتم، والتزاماً منا ستتعاون إدارة الجامعة مع إدراة الصندوق القومي لحل الصعوبات التي تواجهكم، فبدءاً من الأسبوع المقبل سيكون الحل مرئياً، ولكم حق مظاهرة أخرى إن مرّ أسبوع ولم يتغير شئ..."

ثم أكد مدير الصندوق مُرغماً على حديث مدير الجامعة.. إستطاع الدكتور "عيسى الوليد" بكلماته أن يُهدئ تلك النفوس الغاضبة والأصوات العالية، فتفرقت الجموع وتحركت سيارات الشرطة إلى القسم، كما إنسحب الطلبة جماعات وأفراد بعد أن أكدنا لهم أنهم سيرون مِنّا ضِعفي هذا العدد إذا لم تتحقق المطالب خلال الأسبوع المقبل.

لم ينقضي الأسبوع حتى بدأ الحال يتغير إلى الأفضل، فرضي الطلبة بالوضع رغم أن الكهرباء لم تستقر بالكامل بل أن المولد صار يعمل لعشر ساعات فقط في اليوم، ثم إنقضى عامنا الدراسي الأول على ذلك الحال.

بعد مرور ثلاثة أعوام...

قضى "نبيل" إجازته الجامعية ذات الثلاثة أشهر بين القراءة في مكتبة والده وممارسة نشاطاته الثقافية وحملات التوعية لمواطن مدينة نيالا والمناطق المجاورة، فهو عضو مشارك في كثير من الجمعيات الخيرية القائمة على تكاتف شباب المدينة الواعي مثل: جمعية متكافلون وجمعية الناس للناس وغيرها...

تهدف تلك الجمعيات إلى تقديم يد العون لكل محتاج من المتسولين، فاقِدي الملاجئ والمجانين الذين يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، تلك الطبقة التي تجاهلتها الحكومة السودانية وغضت الطرف عنها، وهو أيضاً من أوائل المشاركين في حملات الرعاية الصحية بمساعدة المنظمات وتوزيع الإغاثات على أبناء الوطن الكبير في معسكرات النزوح (معسكر دريج، معسكر عُطاش، معسكر السلام، وأكبرهم معسكر كلمة) الذين نزحتهم قهراً حكومة الحزب اللاوطني من أراضيهم بأيادي الجنجويد.

وهكذا إنقضت إجازته بين مجتهد يسعى في النهار ومُجهدٍ يعاني طيف فتاة أحلامه في المنام، فمازالت "جميلة" تراوده حتى ظن أنها حقيقة، فحزم حقائبه في صباحِ يومِ سبتٍ ماطر عائداً بشوقٍ إلى زالنجي حيث الجامعة وحيث رفقاء الكفاح والنضال.

بُرعُم: عندما اتصل بي "نبيل فِريندو" وأخبرني أنه قد إقترب من مدخل المدينة، كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية ظهراً حيث الشمس ساطعة قوية كأن السماء لم تمطر قبل قليل، غادرتُ الداخلية مُسرعاً إلى موقف اتنين كيلو أصارع الوحل والخيران الصغيرة.

وصلت سيارة سفرية بعد وصولي بعشر دقائق، إطاراتها وملامحُها السفلية تكاد لا تبان من شدة الوحل الذي يغطيها، نزل الرُكاب وفي وجوههم مشقة السفر وسعادة الوصول، فبدأ "الكُمْسَنجِية" وأصحاب الوكالات السفرية وبعض الموجودين في الموقف يرددون عبارة الإستقبال (جيداً جيتو) نزل رفيقي "فِريندو" وقد طوى بنطاله حد رُكبتيه، كان يُرى عليه وغيره من الشباب الذين نزلوا معه آثار الوحل والملابس المبتلة، تعانقنا بشدة لنطفئ بذلك نيران الأشواق التي دامت ثلاثة أشهر فالسنين الماضية جعلتنا رفقاء في الدراسة، المعاناة، الألم، رفقاء في الأمنيات العالية والأحلام المُحطمة رفقاء في الكفاح والنضال.

حمل "فِريندو" حقيبته الصغيرة على ظهره وأنا حملتُ حقيبة ملابسه على كتفي لِنُعاوِد رحلة الصراع مع الطين مرة أخرى، تجاوزنا بذلك فكرة أن نستأجر ركشة بحجة أن المكان قريب وكلانا يعلم في قرارة نفسه أننا ندخر المال لنصرفه في أغراضنا الأخرى.

وفي الطريق سألته عن حاله؟ **فأجاب**: أن الحمد لله.

ثم سألته عن طريق السفر؟ ردّ منزعجاً من تكاسل الحكومة في صيانه الطريق الذي يربط بين المدينتين مما جعل سيارتهم تعلق في رمال الوادي، الأمر الذي كلفهم الحفر والدفع لإخراجها، مبيناً عدم إهتمام الحكومة براحة المواطن، ثم حدثني عن عمليات السلب والنهب التي تعرضت لها إحدى السيارات السفرية اليوم، ثم أخيراً أوصاني مازحاً بعدم السفر في الخريف مُستدلاً بالمثل العامي (سَفَر خريف وأكل تَفَاتِيف[٤] وجِيرَة بني لَفِيف[٥].. كُلُو مِنو أَقِيف).

---

[٤] - تَفَاتِيف: الوجبات الخفيفة...

[٥] - لفيف: المُتَسرع الذي لا يحسن التصرف...

دخلنا الداخلية بعد طول جدال مع الحرس بسبب أن "فِريندو" لم يجدد بطاقته السكنية للعام الجديد.

- ***فِرِيندو***: وأخيراً بعد رحلة شاقة إستغرقت ما يقارب الست ساعات وصلتُ الداخلية التي كنا نعتبرها أقرب لأن تكون مركزاً للخدمة الوطنية فمعاناة الطالب فيها كمعاناة المجندين في مراكز التجنيد.
- ثم سألتُ "بُرعُم" عن رفيقنا "برلماني".
- **فرد قائلاً**: "برلماني" راقد في الغرفة، أصلاً له ثلاثة أيام في معتقلات جهاز الأمن.
- **سألته**: عن سبب الإعتقال.
- **فقال**: تم إعتقاله لذات الأسباب القديمة، فتذكرتُ المرة التي إعتقلنا فيها جهاز الأمن بسبب الخطابات التي نُلقيها على الطلبة في الجامعة أوعلى المواطنين في الساحة الشعبية وأماكن التجمعات.

صعدنا الطابق الثاني حيث تقع غرفتنا التي علقنا عليها إسم "على حافة الخريطة" تمسكاً بقضية مُعاناة الهامش، وهي الغرفة التي لطالما شهدت طموحات جيل يحلم بتغيير جذري للسودان وبناء دولة بملامح جديدة، السودان ذلك البلد الغني الفقير ذو الحواف العديدة والتي نعاني من العيش فيها.

دخلنا الغرفة، كل الشباب موجودين (أزرق، جدو سيجارة، ماكس، أواكس، مدير، بوغبا، شيطان مكة وبرلماني) وبهذا أُعتَبر أنا النزيل الأخير في الغرفة ذات العشرة أشخاص.

ألقيتُ التحايا على الجميع بروح مشتاقة إلا "برلماني" الذي كان يغط في نوم عميق، ومع تمام الساعة الثالثة عصراً بعد أن إستحممتُ وأزلتُ عني آثار السفر تم إحضار وجبة الدَمْسُورُو المعروفة بال(الدِي إم سي) فهي وجبة سريعة الإعداد والتي كنا نعتبرها رفيقنا الحنون في لحظات جوعنا المفرط، عندها استيقظ "برلماني" من نومه متلهفاً كأنه إشتمّ رائحة الطعام الموضوع وسط الغرفة، إتسعت دائرة عينيه الحمراوتين عندما رآني فضحك وألقى عليَّ التحية ثم تعانقنا عناق الرفاق بعد أن طال الفراق، "برلماني" له شخصية قوية، عالي الطموح، حاد الذكاء وهو الوحيد الباقي من أبناء الشرق بعد أن غادروا جميعهم جامعة زالنجي بحجة أنها جامعة لا تطاق.

إنقضى أسبوعي الأول دون أن أخرج من الداخلية ثم في صباح اليوم الأول من الأسبوع الثاني خرجتُ ورفيقيَّ "بُرعُم" و"برلماني" إلى مجمع أريبو –المجمع الطبي– وقد وصلنا بعد عشرين دقيقة من المشي، دخلنا المجمع الذي كان صغيراً مزدحماً لا يسعُ الطلبة جميعاً، دخلنا ونحن نلقي التحايا على من نعرفه ومن لا نعرفه من الطلبة، "بُرعُم" كان يفرك يديه مع بعضهما ويقول متبسماً: اليوم هو يوم إصطياد الفراشات – التعرف على بنات – ثم إتجهنا إلى مطبخ "أمينة" المكان الذي نكثرُ من الجلوس فيه، قابلتها بعبارات المازح المشتاق: "أمينة" يا فرحة المجمع، يا رائحة النعناع، يا جميلة الكون.

فقالت ضاحكة: حمدلاااات يا "فِريندو"، ومن متين بي جاي؟

- والله يا ستي عندي أسبوع معاكم.
- يخسي عليك، أسبوع كامل وما عايز تظهر لينا.
- والله يا "أمينة" قلت أرتاح قبل بداية زنقة المحاضرات.
- ما مشكلة يا زول المهم إنك وصلت بالسلامة.
- الله يسلمك يااااخ.
- أها اتفضلوا اليوم مشروباتكم عليّ.
- يزيد فضلك، كلك ذوق، عليك الله ثلاثة أكواب قهوة بي جمرتها "قهوة بكثير من الزنجبيل".

وبينما نحن نتلذذ بالقهوة التي أحضرتها "أماني" الفتاة الصغيرة التي تعمل مع "أمينة" والتي كنا نرى أنها ضحية الفقر المجتمعي، حيث فتاة بمثل عمرها يجب أن تكون في المدرسة ترتشف وتسقي عقلها من بحور العلم والمعرفة، حينها طلّت علينا رفيقتنا "أمل" مرتدية فستاناً أسود اللون مخطط بالأصفر مما جعل "بُرعُم" يمازحها **قائلاً**: مرحباً بالنحلة، فردت عليه بسؤالها: وأين العسل؟

ضحك "بُرعُم" ثم **قال**: ينقط من لسانك.

بذلك اكتملت مجموعتنا الرباعية للاستذكار الجماعي ومراجعة الدروس، قد كنا نسمي مجموعتنا "قروب تينقلنق" وتينقلنق هي كلمة انجليزية وجدناها في إحدى الدروس أثناء مراجعتنا الجماعية فصارت مذ ذلك الحين اسماً لمجموعتنا.

بعد أن شربنا القهوة إتجهنا إلى القاعة الكبرى لحضور اللقاء التنويري للطلاب الجدد بعد أن رشحتني رابطة طلاب المجمع أن أكون الناطق بإسمها، فدخلنا القاعة وجلس رفاقي في المقاعد الخلفية وأنا اعتليتُ المنصة واثق الخطوة بعد أن قدمني ضابط المنصة لإلقاء الكلمة فخضتُ في القول: بإسم رب الكون، بإسم الشعب المنكوب، بإسم السودان المحجوب، بإسم الطموحات العالية، بإسم الأحلام المُحطمة، ثم بإسم الجامعة وبإسم الرابطة نُحييكم ونهنئ أنفسنا بكم فمرحباً بجيل الصمود رغم القيود، مرحباً بكم أحفاد تهراقة وحفيدات الكنداكة السودانية، مرحباً بمن داوم على التعليم رغم ظروف البلاد.

إخوتي وأخواتي إني أرى في أعينكم نظراتٍ عالية الطموح نحو غدٍ مشرق فلا تفقدوها مهما طالت وعَظُمت المعاناة فأنتم حاملي العلمَ مُخرِجِي هذا البلد من مستنقع الجهل، أنتم مستقبل دولة تعاني الجهل والفقر رغم الغنى الموروث، لا تفقدوا الأمل فالأفضل قادمٌ وبأيديكم.

الجامعة هي بوابة لكم نحو إكتشاف الذات، هي منصة إبراز الخصائص والميزات فأخْطُوا نحو رحلة التعرف على أنفسكم، أنتم المحفزون لذواتكم فلا تعجزوا عن بناء أنفسكم، قاوموا قُتال الطموح أيها الطامحون، كونوا عُمياناً عن كل ما يعيق أحلامكم واضربوا بالمغريات عرض الحائط.

وقبل الختام **أقول**: "أنيروا العقول بمصابيح العلم والمعرفة لتُنيروا وتبددوا ظُلمة الوطن المحجوب"

ثم مسك الختام: "دمتم نوراً للوطن ودام الوطن بكم مُضاءً عالياً، أخضراً، واسعاً، كبيراً، كبيراً جداً"

•••

إنقضى شهر ونحن ندور في دائرة الملل وتراتُبية الأحداث بين محاضرات في الجامعة أو المستشفى صباحاً والإستذكار مساءً.

وظلت الدوامة تدور حتى إعترضتها موجة التغيير في ليلةٍ خريفية كان البعوض هو الحاكم وسيد الحلبة، ونعيق الضفادع في مستنقعات المياه هي المعزوفة الوحيدة في ذلك الخلاء الموحش، رنّ هاتفي وأنا في مكتبة الداخلية أحاول إقناع ذاتي أنني يجب أن أذاكر حتى أصبح طبيباً ماهراً كما تتمنى أمي، ظننتُ أن أبي هو المتصل ليُبشرني أنه قد أرسل مصروفي الشهري، لكن سرعان ما تبددت سحابة الأمنيات عندما وجدتُ أن المتصل هو "معاوية برلوم" طالب معنا في الكلية، طلب مني المساعدة في شرح مادة الكيمياء الحيوية فقبلتُ طلبه وأنهيت المكالمة ثم أغلقتُ المرجع الذي كنت أقرأ منه وحملتُ نفسي متجهاً إلى الغرفة وارتميتُ في سريري ونفسي تردد: "اللهم إني أسلمتُ وجهي إليك وفوضتُ أمري إليك رغبةً ورهبةً، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك..."

وبعد ليلة طويلة عانيتُ فيها من الأرق ثم طيف "جميلة" الذي إتخذ من مخيلتي موطناً له، إستيقظتُ مُتعباً كأني كنت أمارس العِتالة في منامي أو كأني لم أنم منذ دهر، شجعتُ من نفسي وقويتُ من عزيمتي بعد أن رأيتُ "بُرعُم" و"برلماني" قد إستيقظا مبكراً على غير عادتهما، يبدو أن لديهما خطط لهذا اليوم غير حضور المحاضرة فحسب، فعلى الرغم من كثرة نقاشاتهما الحادة إلا أنهما يتفقان في كثير من الأمور التي يحاولان حجبها عني لكوني أراها أفعالاً لها عواقب وخيمة، أسرعتُ في الإستحمام وتجهيز نفسي ثم خرجنا ثلاثتنا مسرعين لحضور المحاضرة من بدايتها.

وجدنا "أمل" عند بوابة المجمع تنذرنا بخبر إلغاء المحاضرة وذلك أن الدكتور المحاضر لديه اجتماع مهم، فقال "بُرعُم": إذاً "أمينة" هي الملاذ، لنذهب ونستمتع بقهوتها اللذيذة، لكن سرعان ما إعترضته "أمل" **قائلة**: يجب أن نبدأ في المراجعة الآن فلدينا الكثير من المحاضرات التي تنتظرنا.

إستطاعت أمل وبكل حزم أن تغير تفكيرنا فهي لها شخصية تمتاز بالجدية والحزم في كل ما يتعلق بالدراسة وهو الأمر الذي ساعد في نجاحنا طيلة الفصول الدراسية السابقة، فجلسنا للمراجعة ولم نستطع التحرر من قيودها حتى دقت ساعة الإفطار متحججين بأننا لم نأكل شئ منذ مساء البارحة، فأطلقت سراحنا وإتجهنا إلى مطبخ "أمينة" مهرولين نعاني الجوع والإشتياق لقهوتها التي كأّن بها سحر يلزم من تذوقها أول مرة على المداومة على شربها كل يوم.

بعد الإفطار إستأذن "بُرعُم" و"برلماني" بأن لديهما أمر سيخرجان لقضائه، حينها تأكدت شكوكي الصباحية لكني لم أشأ أن ندخل في دوامة السؤال والجواب فأخبرتهما أني أيضاً لدي ما يشغلني حيث كان "معاوية برلوم" في إنتظاري عند أحد البينشات قرب مشرحة الكلية، حضرتُ وألقيتُ التحية عليهم ثم تأسفتُ إن كنتُ قد تأخرتُ، كانوا ثلاثة "معاوية" ومعه فتاتين إحداهما "مزن" عشيقته والأخرى لم أرها من قبل فعرّفها عليّ **قائلاً**: هذا "نبيل فِريندو" من أبناء مدينة نيالا، يدرس في السنة الخامسة، ثم عرّفني عليها بأن إسمها "نوارة" رفيقتهما في الدراسة وهي من مدينة نيالا أيضاً، حينها تأكدتُ صدق المقولة العربية (إن لكل شخص من اسمه نصيب) فما هي إلا أحقُ بأن توصف بأنها نوارٌ لإحدى الأزهار الجميلة، فشكرتُ قَدَري ثم شكرتُ "معاوية" في سري بأن جمعاني بهذه الزهرة الغربية، ثم تبسمتُ بسمة الأبله **قائلاً**: تشرفتُ بمعرفتكِ لترد هي علىَّ بإستحياء وأنا أيضاً تشرفتُ بك، جلستُ قرب "معاوية" وقلبي يتمنى لو كانت هي مكانه ثم شرعنا في المراجعة، أشرحُ حيناً وحيناً آخر أتلصصُ بخبثٍ على "نوارة الغرب".

أنهينا المراجعة بعد أربع ساعات من الجلوس المتواصل فدعانا "معاوية" لشرب القهوة لكن "نوارة" تعذرت بأن الوقت قد تأخر وأن عليها الذهاب، وأنا أيضاً تعذرتُ لتعذرها فإنصرفتُ وتركتُ العاشقين يتلذذان بحديث بعضهما.

بُرعُم وبرلماني: بعد أن فارقا "فِريندو" عقب الإفطار خرجا من المجمع إلى معسكر الحميدية الذي يقع خلف المجمع مباشرة والذي لا يفصل بينه وبين المجمع سوى زُقاق ضيق، قصدا منزل "خديجة" الفدادية حسب إتفاقهما ليلة البارحة وهما على سطح الداخلية يُدخنان السجائر، كانت نظرات الريبة تصطادهما من سكان المعسكر كما صار البعض يستجوبهما باللغة المحلية فقد كان "برلماني" بسحنته الفاتحة وشعره الناعم يُوحي بأنه غريب عن المعسكر الذي كان يُمنع دخوله حتى على الحكومة.

كان "بُرعُم" يرد على أسئلتهم مستخدماً اللغة المحلية بطلاقة ومهارة المتمرس الأمر الذي ساعد في توغلهما داخل المعسكر ف"بُرعُم" هو من أبناء مدينة زالنجي تقيم أسرته في الحي الشرقي إلا أنه يفضل السكن مع رفاقه في السكن الطلابي ليبتعد بقدر الإمكان عن أبيه الذي كان يرى فيه نوعاً من التسلط والديكتاتورية والتشدد الديني الأمر الذي يراه "بُرعُم" تعدياً عليه وكبتاً لحريته وحرمانه من التمتع بفترة شبابه.

وصلا منزل "خديجة" الفدادية[٦] بعد عشر دقائق من التوغل عبر الممرات الضيقة للمعسكر، سور المنزل مبني من الطين والطوب اللبِن، به باب كبير من الحصير مُخيطاً عليه جوالات، يُستخدم الباب لإدخال عربة الكارو.

---

[٦] - **الفدادية: بائعة الخمور البلدية...**

دخلا من فتحة الباب الضيقة، غرفتي جالوص في الركنين الأماميين كما توجد أربع رواكيب اثنتان منهما أمام الغرفتين، وفي وسط المنزل شجرة لالوب كبيرة تحت ظلها ثلاثة أسِرّة.

تقدما أكثر فهتف "بُرعُم" مُنادياً: خَدوج يا رفيقة إبليس.

فخرجت إمرأة أربعينية من إحدى الغرفتين ترتدي جلباباً واسعاً ردت عليه بلغة محلية ركيكة: أبو النسب، تعالي جاي يا دكتور.

- الأمور كيف يا "خديجة"؟
- عوجة أكبا، ومالوا طولتي مننا زي ده؟
- جري الدنيا بس يا خدوج.
- أني قاعد نسأل منك توالي – طوالي-
- يسأل منك الخير يأخ.

ثم جلسا على السريرين وجلست "خديجة" على البساط فعرّفها "بُرعُم" على "برلماني" فتبسمت بسمة التاجر الذي اكتسب زبوناً للتو ثم أعدت لهما القهوة بالزنجبيل سريعاً.

شربا القهوة بمزاج عالي ثم سألها "بُرعُم": أها الشغل جاهز؟

- كلو جاهز (مَريسة، عرقي، بنقو).
- كبي لينا من العرقي أسي والبنقو نشيلو سفري.

شربا فوق المُستطاع ثم استلقي كل منهما على سريرٍ، "برلماني" يضحك بلا سبب أما "بُرعُم" يردد بعضاً من شِعره:

ياخ مشتاقين

رُدِيها عليّ، إحساس قليب في كلمتين

رُدِيها ياخ وبعدها يفيض نبعٌ من حنين

قربي خطوة وكمان خطوتين

مدي يدك وامسحي مني دمع العين

نقعد نحنا ونغني مع العُشاق غنوتين

صباحنا بين الغصون عصفورتين

وليلنا في سماء العشاق نلمع بس نجمتين

وِجْ-وِجْ، ويقولوا ياهم ديل الحبيبين

البينا حُب وبدايتو بس ضحكتين

كمان لغتنا وأساسها بس كلمتين

ياخ مشتاقين

بعد سبعِ ساعات إستيقظا مُرهقين بأعين مُحمرة وملابس متسخة بعد أن أفرغا كل ما في بَطنيهما، بعدها أعدت لهما "خديجة" العصيدة بالكَول على أن يدفعا قيمة الطعام مع حساب العرقي، أكلا بشراهةٍ ثم علق "بُرعُم" مُبتسماً: والله يا خدوج أنا المفروض أعرسك عشان العرقي حقك ده.

- لالا وبِنيتي – بنتي – دي نعرسها لي منو؟
- البنت ما مشكلة، نشوف ليها عريس تاني.
- لالا، أني نزوج بنيتي لدكتور بس.
- ما مشكلة تب، زميلنا "برلماني" قاعد وجاهز.
- يا زول نحنا جينا نسكر ولا نعرس؟
- خلاص أنسي يا خدوج، الزول ده نطة.
- أصلاً وين هي البت؟ "يسأل برلماني"
- "فاطمة" يومين ده طلع مشى الزراعة.
- خلاص لما تجي نشوف الموضوع ده، يلا نطلع يا صاحبي الزمن اتأخر عديل، الشمس قربت تغيب.
- يلا سلام يا خدوج، نجتمع في جلسات سُكْر قادمة.

خرجا وهما يحملان البنقو في جيوبهما، خرجا مروراً بذات الممرات الضيقة يُعانيان من تجاوز المياه الراكدة في أنصاف ذات الممرات بفعل الأمطار الغزيرة التي هطلت البارحة، في أقل من ربع ساعة هذه المرة تمكنا من الخروج من معسكر الحميدية إلى الطريق الرئيسية، قرب موقف الركشات شرقي سوق (مُرين)، لم يكن معهما مال كافي لكي يدفعا تعريفة المواصلات لذلك لم يكن أمامهما سوى خيار المشي على الأقدام بجانب الطريق والتأشير لأي سيارة تمر بالقرب منهما "رُكُوب الملح" كما يُسميانه.

يقول "برلماني": تذكرتُ مقولة "خديجة" الفدادية بأنها لن تُزوج ابنتها إلا بدكتور، فسألتُ "بُرعُم" عن سبب التقديس المجتمعي لمهنة الطبيب؟

- علق "بُرعُم": إن السبب وراء هذا التقديس هو الصورة النمطية التي إرتسمت في عقول ذلك الجيل، فهم يرون أن مهنة الطب فيها العلم والمال، لذلك صار المجتمع مُقدساً لها أكثر من باقي المهن في حين أن عجلة المجتمع لا تدور بمهنة واحدة فقط، وإن الطبيب في المشفى ليس أكثر قيمة من بائع الورود الفقير في الحديقة، فذاك يداوي بعد وقوع المرض وهذا بوردة يمنع أمراضاً قد تصيب النفس.

وقد صار بعض الآباء يجبرون أبنائهم على دراسة الطب ليكون بذلك مفخرة للأب أمام المجتمع، والأم تتبختر به أمام نساء الحي في جلسات شرب القهوة.

لكن يا صديقي لكل مُسَببٍ سَبَبُ، ذلك أن السبب وراء تلك الأفكار هو أن الدولة لم تكن تهتم بكل المجالات فلا توفر فرص عمل لكافة الخريجين بمختلف المجالات فهي ليست إلا دولة ناقصة المؤسسات.

قطعنا مسافة بعيدة ولم يحالفنا الحظ بأن تقف سيارة وتُقلنا حتى وصلنا نقطة إفتراقنا مع الطريق الرئيسي ونسلك طريقاً فرعياً مختصراً، فمررنا عبر مجمع الكليات المُهملة (اقتصاد، لغات، حاسوب) حيث لا بينشات للجلوس ولا حتى حائط ليحمي الخصوصية، أثارني الأمر لأن أفتح حواراً آخر مع "بُرعُم".

- يا "بُرعُم"، رأيك شنو في وضع الكُليات دي؟
- الرأي واضح يا "برلماني".. الجامعة دي كلها محتاجة تحسين.
- تفتكر منو المسؤول من إجراء التغيير والتحسين ؟
- دي عملية تعاونية بين إدارة الجامعة وتكاتف الطلبة.
- كيف ؟
- من ناحية إدارة الجامعة لازم يكون عندها إستثماراتها الخاصة عشان تقدر تنجز أمورها، يعني ما تكتفي بنصيبها المخصص ليها من الدولة فقط، ثم من ناحية الطلبة في وضع زي ده لازم يكون عندهم روابط تهتم بتوفير بيئة مناسبة تليق بالحياة الجامعية، يكون عندهم أجسام تجمع لهم أموال إن شاء الله يمشوا يطلبوا من التجار في السوق أو من المنظمات الخيرية، وطبعاً أهم شيء المصداقية تكون موجودة.
- ثم سألته بعد أن انتبهتُ مؤخراً: يا "بُرعُم" مش ياهو ده نفس الطريق الفيهو نهب مسلح؟
- هو زاتو االي.. لكن ما تخاف معاك أنا يااخ.

ثم فجأة وعند الركن الشمالي الغربي لداخلية جبل مرة "سكن الطالبات" خرج علينا لصوص مسلحون، عددهم أربعة، أحدهم يحمل مُسدساً والآخرون كلٌ منهم يحمل سكيناً، وبعضهم سكيناً وسوطاً فأمرنا صاحب المسدس بأن نسلمهم كل ما نملك.

نظر إليَّ "بُرعُم" نظرة حادة ثم عاد ونظر بعيداً كإشارة منه أن نطلق سيقاننا للريح، إلا أني رددتُ عليه بأن نظرتُ إليه بذات الحِدة ثم نظرتُ إلى المسدس كإجابة مني أن هذا المسدس قادر على اصطيادنا من بعيد، ولم يكن خيار المقاومة صائباً في تلك اللحظة فهم أكثر منا عدداً وعُدةً، حتى الصراخ لم يكن ليغيثنا في ذلك الخلاء الموحش، إذاً لم يكن أمامنا سوى خيار الرضوخ لهم فسلمناهم كل ما نملك من هواتف وساعات يدوية حتى البنقو، ثم جَلدونا بالسياط التي في أيديهم كأننا الجُناةُ وهم القُضاةُ، كل منا جُلِد فوق العشر جلدات، ثم بعد أن تقطعت سياطهم قال صاحب المسدس وهو يبتسم إبتسامة أوجعتني أكثر من وجع السوط: يلا قوموا أجروا وبكره برضو تعالوا.

بدأنا المسير ونحن نشعر أن رجولتنا قد تم إنتهاكها من قِبل خمسة مراهقين ملثمين، ثم رَبتَ "بُرعُم" على كتفي وقال بوجه غاضب وصوت مهزوم: يجب أن يظل هذا الأمر سراً بيننا حتى الموت.

•••

رُسل السلام...

في أرض الرب الغنية، فيها زرعٌ وفاكهة شهية، فيها جبال بقممٍ ضبابية، فيها تراث لقبائل عربية وأفريقية، ساد فقرٌ وظلمٌ وجَهوية، فمات رجل وامرأة وطفل ونفسٍ مهدية، من أجل طمس للهوية، وسلباً لموارد الأرض الغنية، ففيها ذهب ونحاس وقِطَعٌ فضية، وجاد الرب فيها أنهاراً من مواد عضوية.

فإستعد وأعدّ الرفاقُ حقائبهم الصغيرة، "وَنْ-دَي، فِريندو، بُرعُم وبرلماني" خرجوا يطوفون الفُرقانَ وكل قرية، ينشدون بضمائرهم النقية، يلقون على الجموع خُطباً أَلمَعِية، أن انبذوا اليوم خُططاً أجنبية، فلا تجعلوها طائفية وحِزبية، ولا نَفْس دون نَفْسٍ محظية، وأن الدولة تُبنى بالكُلية.

كل ذلك الظلم والموت والتخريب من تدبير العُمد، الشراتي والنُظار وأعيان القبائل فهم يتكسبون من كَمِّ الأرواح المزهوقة، فكلما إشتعلت نيران الفتن والإقتتال وكثر القتل والسلب، فلهم نصيب من الدِيّات التي تؤخذ كما يقتسمون الغنائم مع من جاء بها من شباب القبيلة الذين يُعتبرون وقود الفتن والحروب.

"وَنْ-دَي، فِريندو، بُرعُم وبرلماني" كانوا للسلام رُسلاً، قضوا من الأيام ثلاثاً، ومن الليالي ثلاث، تنقّلوا بين الناسِ ينثرون في أرضهم حُباً وإخاءً مرجواً، وأخلفوا فيهم:

إن الناس سواء والسلاح داء

وصوتٌ الطبيعة للنفس دواء

فكفوا يا إخوةٌ عن العداء

ولا تقدموا للشيطان ولاء

يطيبُ لكم بعدها العيش بهناء

بعد ثلاثة أيام قضيناها في رحلتنا الطوعية والتوعوية، عدنا إلى الجامعة وأنا أذكر أول لقاء جمعني مع "نوارة" كما أذكر ليلة ذات اليوم بعد أن عدتُ إلى سريري وخلدتُ إلى النوم، فلم يكن طيف "جميلة" هو الزائر بل كانت "نوارة" هي زائرتي، فكأن طيف "جميلة" لم يأتني إلا لتجهيز قلبي لملكةٍ قادمة، إنتظرتُ وانتظرت لكني لم أرها في المجمع ذلك اليوم حتى غابت الشمس وعدتُ إلى الداخلية.

ثم في اليوم التالي وصلتُ إلى المجمع وأنا أشد شوقاً لرؤيتها، جلستُ ولأول مرة على أحد البينشات قرب البوابة، جلستُ وأنا أتصفح بريدي الشخصي قبل أن يأتي باقي أعضاء قروب "تينقلنق" لنهيم بين صفحات المراجع، ثم فجأة وكأن شخصاً أمسك ذقني بأصبعيه وأدار وجهي ناحية البوابة لأرى بلسم الجروح ودواء القلوب المشتاقة، كانت هي ذات العينين الكحيلتين والشامة الصغيرة والوجنة الفريدة، تمشي بوقارٍ كأنها تخشى على الأرض من تحتها، بل تمشي بحنان كأن قدماها يغازلان تراب الأرض تحتها ذرة ذرة، ثم تتمايل حيناً كغصنٍ ياسميني تُداعبه نُسيمات الخريف الرطبة، وديعة كطفلةٍ تنظر ظلها في الأرض وتراقصه بدلالٍ أنثوي.

فأدركتُ أن القدر رَبَتَ على كتفي وحنّ على قلبي المشتاق، إنتعش قلبي وتبسّم وجهي لما صار بيني وبينها خطوات معدودة، لكن سرعان ما حلت الدهشة مكان البسمة لما مرت بي كما يمر الإنسان بفرد من الجن فلا يُلقي عليه تحيةً ولا هو يراه حتى، عندها شعرتُ كأن أحداً أمسك مِشرطاً وأخذ يقطّع قلبي قطعةً قطعة، فأدركتُ أن ذات القدر قد بدأ يمارس معي لعبة الخذلان.

راقبتها وهي تمشي حتى إبتعدت وجلست على البينش تحت شجرة بعيدة، بدت أنها قوية، عزيزة النفس وصعبة المنال، وقد كنت كمفترس تهيأ لصيد ذاك الغزال، لم يُشعِرني الموقف بالتراجع بل قمتُ إليها بعد أن مسحتُ حذائي وخللتُ شعري مجدداً ثم نظرتُ وجهي على شاشة الموبايل، إقتربت منها بثقةٍ وقد كانت جميلة وهادئة، هادئة جداً، كشيخٍ فرغ من أداء صلاته ثم جلس يذكر ربه.

- السلام على من تجلس وحيدةً.
- والسلام على من جاء إلينا بالسلام، بل السلام على من جاء يؤنس وحدتنا.
- كيف حالكِ يا "نوارة"؟
- أحمدُ الله.. وأنتَ كيف حالك؟
- الحمد لله، وأنا أخفي خلفها الكثير من المشاعر التي لم أتبين حقيقتها بعدُ.
- لم أركِ الأمس بصحبة "معاوية" و"مزن" فأين كنت؟
- سؤالي كان عادياً لكن مضمونه " أني اشتقتُ لرؤيتك"
- كنتُ مريضة، لكني استعدتُ عافيتي الآن.
- جعل الله المرض كفارة، ثم كل منا قد استعاد عافيته الآن.
- ماذا تقصد؟
- لا شيء أحمد الله أنكِ بخير.
- أشكركَ يا.....؟ أعذرني فقد نسيت اسمكَ.

- لا أنكرُ أن أصابتني الدهشة مغمورة بالخجل بعد سؤالها، فأحسستُ وكأن حجمي يتضاءل كالبالون المثقوب، لعل عقلها أراد أن يتمسك بالذكريات الجميلة فحسب، ثم ألقاني وباقي المهملات في سلة بعيدة.

رأيتُ أن حديثنا إلى هنا كان كافياً، يجب أن أنسحب ليبقى عقلها مشغولاً بتذكر اسمي وليكون ذلك سبب حديثنا القادم.

- سأخبركِ اسمي في المرة القادمة، وبذلك أكون قد حجزتُ موعداً معها في مقبل الأيام.
- حسناً.
- إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

في اليوم التالي عقب محاضرة طويلة ومعقدة جلستُ مع الرفاق في النشاط الغربي قرب مطبخ "أمينة" لإحتساء القهوة ذات الجمرة؛ للتخلص من تراكمات الضغط الأكاديمي ولنصنع لأنفسنا ذكريات جميلة تبقى لنا بعد التخرج.

صرتُ في حالة الصمت والغياب عن المحيط والتي دوماً ما تعتريني وأنا أرتشف القهوة، وبينما أنا في لحظات صمتي تلك أقلّبُ نظري بين أوجه الجالسين في النشاط رأيتُ "مزن" عشيقة "معاوية" تجلس مع بعض رفيقاتها، تَفَحّصتُ أوجه الموجودين معها لعلي أرى "نوارة" بينهم، ربحت عيني عندما رأيتها تجلس على طرف المقعد تنظرُ إليّ كما أنظر إليها كأنها كانت تراقبني منذ زمن، تبسمت بإستحياء من بعيد فازدات جمالاً، حركت شفتيها ذات اللون الأحمر الخفيف على عجلٍ، نظرتُ إليها نظرة أن أعيدي ما قلتِ، فأعادت الحركة فأدركتُ أنها كانت تلفظ برقةٍ حروف إسمي "ن_ب_ي_ل".

أيقنتُ أن خطتي قد نجحت، لقد بات عقلها في الليلة السابقة مشغولاً بتذكر إسمي أو أنها بحثت عن إسمي بأن سألت أحداً فأخبرها.

ثم تبسمتُ لها كما إبتسمت لي لنختم بذلك لقاءنا الذي لم يتم، ثم عدتُ بذهني إلى رفاقي وقد هَمّ كل منهم بالمغادرة لقضاء حاجته، بعدها طلب مني "بُرعُم" مرافقته إلى المنزل بعد أن تعذر عنه "برلماني" بحجة أن لديه موعداً غرامياً مع "هند" إحدى طالبات كلية الزراعة.

فخرجتُ و"بُرعُم" من المجمع والشمس مُعلِنةٌ عن وجودها بأشعتها الحارقة، التي كانت تؤكد أنها ستتسبب في تكوين سُحبٍ بعد دقائق قليلة.

أسرة "بُرعُم" المكونة من الأب "الحاج محمد"، والأم "ليلى" وأخوين صغيرين، ويُعتَبر "بُرعُم" هو الإبن الأكبر، تقيم في الحي الشرقي، أحد أجمل أحياء المدينة، ويقع غرب وادي أريبو، دخلنا المنزل الذي كان واسعاً تتوسطه شجرة مانجو عملاقة مع مختلف الأزهار في باحة المنزل، وبعد أن ألقينا التحية على والدته وأخويه الصغيرين سأل "بُرعُم" عن أبيه، فردت عليه الأم: أنه خرج إلى دكانه في السوق، أحسَّ "بُرعُم" براحة مطلقة فلن يضطر لسماع المحاضرات التربوية التي يلقيها عليه والده وبالتالي لن يخوض معه جدالاً حول أنه أصبح مُستقِلاً الآن.

أكرمتنا والدته بوجبة دسمة عوضتني عن فراق أمي بنيالا، ثم سقتنا عصير الليمون والقونقليز، شربنا حتى إنتفخت البطون لكنها طلبت منا شرب المزيد والمزيد فقد كانت ترى فينا الجوع ومعاناة الحياة في السكن الطُلابي.

وبينما نحن جالسين مع الخالة "ليلى" التي أخذت تطمئن على حالنا حِيناً وحيناً آخر تُحدث "بُرعُم" عن أخبار الأسرة التي فارقها منذ بداية الفصل الدراسي، حينئذٍ دخل علينا "الحاج محمد" ألقى علينا التحية بوجه عادي لا هو فرحٍ ولا حزين فقط جاد، الكثير من الجدية، ثم جلس معنا لتتغير معالم وجه "بُرعُم" من المرح إلى الجدية، بدأ يسأل عن حالنا مع معاناة حياة السكن والضغط الأكاديمي.

أنا أجيب بينما "بُرعُم" آثر أن يبقى صامتاً، وبعد دقائق قليلة قضيناها مع "الحاج محمد" نظر "بُرعُم" إلى ساعته الجديدة مقرراً بذلك أنه يجب أن نغادر فقد تأخر الوقت، أو لعله أراد الهرب قبل أن يختلف مع والده في رأي ما، وقَبْلَ أن ينهض "بُرعُم" من الكرسي هاجمه "الحاج محمد" **قائلاً بإمتعاط**:

- مازال شعرك كما هو، لا يليق بك كطبيبٍ مستقبلي، ولا حتى كشخصٍ واعي، مازلتَ لا تُقَدِرنا ولا تحترمنا نحن والديك، متى سكتبر وتنضج مثل صديقك هذا، أنظر إليه كم هو مهذب في هيئته.
- ما علاقة شعري بأن أصبح طبيباً يا أبي، وما علاقته بالوعي والإدراك، إن الوعي والعلم في العقل داخل الرأس لا فوقه.
- نعم الوعي والعلم في العقل، لكن ما فائدة العلم إن لم ينعكس على مظهرك الخارجي، وهو ما يراه الناس.
- إن كل من يحكم عليّ بِناءً على شكلي الخارجي أنا أعتبره إنسان سطحي ليس إلا.
- لا أرى سطحياً غيرك، فأنت شخص لا تملك من القيم أي شي ومن العار أن تكون ابني وأنا رجل احفظ كتاب الله.
- الآن أصبحتُ سبب العار بالنسبة إليك وقد كنتَ قبل مدة قصيرة تفتخر بي أمام الجميع في عرس ابن عمي وقد كنتُ كما أنا الآن.

فتدخلت "الخالة ليلى" محاولةً تهدئة الموقف.

أما أنا كنتُ صامتاً أقيسُ نقاشهما من وجهة نظري، كنت أرى أن غضب "الحاج محمد" هو حُباً بأن يبدو إبنه لائقاً أمام الجميع، فهو يرى أن صورة ابنه من صورته، إذا أحسن الابن التصرف فتلك نعمة له ولأبيه وإذا أساء إبنه التصرف كأنه هو الذي أساء، وبالرغم من أنه أراد النصح والتهذيب إلا أنه إستخدم الغلظة في حديثه، الأمر الذي يُنفِّر إبنه منه، كما أنه بهذا الصراخ التحاوري يُعتبر قد أحرجَ إبنه أمامي.

أما من ناحية "بُرعُم" فكنت أرى فيه صراع الابن الذي يحاول الخروج من جلباب أبيه؛ نظراً لأنه يراه من ذوي العقلية المعقدة التي لا تملك مرونة في النقاش ولا في الكلام، وأفكاره متحجرة لا تقبل التغير، وأيضاً كنت أرى أن "بُرعُم" يمثل حال الكثيرين من أبناء هذا الجيل في البعد عن الدين الإسلامي لذلك يرى أن كل السلوكيات التي يتبعها هي في الأصل مباحة ولا يحق لأحدٍ أن يتدخل.

أعادني هذا النقاش بذاكرتي إلى العام الماضي حيث دار بيني وبين أبي نقاش على شاكلته إلا أنني كنت مستمعاً جيداً أحاول أن أستوعب ما يقوله لي أبي بشأن تهذيب الشعر وأيضاً أبي ليس "كالحاج محمد" فهو دوماً شخصٌ لينٌ في أفكاره وحديثه إلينا، يضرب الفكرة بالفكرة والغَلبةُ دوماً له نظراً لعقليته ذات المرجعية الفكرية، هو مستمع جيد كما هو متحدث بارع، لا يقطع حديثاً أبداً لعله بذلك يحاول أن يفهم طريقة تفكيري، أذكر في ذلك النقاش أن أبي استخدم الحكمة والدليل السني لإقناعي بتهذيب الشعر، وهو الأمر الذي يفتقده "الحاج محمد" أن يأتي بالدليل والأسباب لإقناع إبنه.

بعد طول نقاش قام "الحاج محمد" إلى غرفته منزعجاً ، وتركنا مع "بُرعُم" الذي بدأ يقول (التعصب ده حاجة شينة خلاص).

فطلبتُ منه أن يهدأ، ثم أن والده وإن أغلظَ عليه فإن له الحق في بعض ما قاله، ثم أنه ما هكذا تُوردُ الإبل، فإن هو رأى في أبيه غضباً وغلظةً يجب أن يُرخي هو ويلين كي لا يتحول الأمر من حوار إلى جدال حاد، قد طلبت منا "الخالة ليلى" المبيت بعد أن قررنا المغادرة إلا أننا رأينا أنها فكرة غير سليمة فربما تشتعل نار النقاش بين "بُرعُم" ووالده ونحن نِيام.

وبعد أن خرجنا إلى الشارع إتجه "بُرعُم" إلى أقرب دكان مُشترياً سيجارة، على حد قوله ستساعده في الإسترخاء.

ثم في المساء عاد "فِريندو" و"بُرعُم" إلى الغرفة وهما يجرجران نفسيهما من التعب، إرتمى "فِريندو" إلى سريره وجلس "بُرعُم" على حافة سرير "برلماني" **ثم قال**: هيا أحكي تفاصيل الموعد الغرامي.

لم يتردد "برلماني" أن يحكي فقد كانت الغرفة خالية لا يوجد بها إلا ثلاثتهم، أطفأ سيجارته ثم **قال**: بعد أن غادرتما المجمع، اتصلتُ ب"هند" وحددت معها مكان اللقاء الذي كان في كلية الزراعة عند أحد البينشات الطرفية تحت الشجرة، ذهبتُ قبلها بدقائق وقد بدأ المكان يخلو من الطلبة، رأيتها من بعيد تمشي والشوق يدفعها، كانت هُلامية الأرداف والثديين، تحرك ردفيها ونهديها كمادة الكاستر فشعرتُ أنها قصدت إثارتي من بعيد، اقتربت مني فإحتضنتها كما يحتضن الزوجان بعضهما، كنت كمن يجلس قرب نارٍ من أعواد الصندل في ليلة شتوية باردة فحضنها دافئ وعَطِرٌ كالصندل، جلسنا نعزف ألحان المتعة، كنتُ أنا العازف وكانت هي كآلة البيانو أينما وضعتُ يدي عليها تُخرج من حنجرتها صوتاً يُراقص شهوتي.

عندما وصل "برلماني" إلى هذه النقطة، رأى "فِريندو" أن الموقف محرج ومقزز، فهو يعتبره يحكي عن نفسه وعن الكثيرين الذين يعتبرون التسلية الجنسية هي واجبٌ يومي يتم التمتع به في المقاعد الخلفية داخل القاعات أو البينشات الطرفية في حرم الجامعة غير آبهين للقيم والمُثل التي نشأ عليها المجتمع السوداني ومازال يُوصف بها، وهم بذلك يظهرون سخافات لا ثقافات جديدة تهدم كل الموروثات الأخلاقية والدينية.

•••

على ذات المقعد أجلس قرب "نوارة" مع الحبيبين "معاوية" و"مزن" أراجع معهم بعض ما يصعب عليهم من دروس، هم يركزون في محاولة منهم لفهم الدرس، بينما أتلذذ أنا بإختلاس النظر إلى "نوارة"، تلك الحسناء الفريدة، هذه المرة تعمدتُ الجلوس قربها لأسعد أنفي ورئتي بإستنشاق رحيقها الأخاذ.

أخرجت من حقيبتها مرآة وعلبة قطرة العيون ثم قطرت نقطة في كل عين، فسألتها ما بكِ؟

قالت بدلال وهي تنظر في المرآة: أصاب الرمد عيني.

قلت: قد يخسف القمر أحياناً، ويا لسعادة المرآة والقطرة بكِ.

قالت: ماذا تقصد؟

قلت: عذراً، لا أقصد شيئاً.

فتبسمت بخفةٍ وخجل شديد، لقد إستقام قلبي عليها وأدركتُ ما أبغي، لا حياة لي إن لم أفز بقلبها وأتلذذ بحبها، قد تجاوز الأمر كونه إعجاباً فقط، لقد وقعت في شباكها، هي الآن قصة حب من طرف واحد، لذا يجب أن أرمي شباك الإغراء لتقع فيها وتصبح قصة حب من طرفين، سألقي شباكي صابراً فنهر الحياة لا يهب أسماكه إلا لمن ألقى شباك الصبر.

هنا علمتُ أن الحب هو المخالفة، أي أن أعشق فتاة صفاتها تخالف كل الصفات المعنوية والحسية لفتاة الأحلام التي رسمتها في مخيلتي، علمتُ أن الحب هو مخالفتي وتنازلي عن أحلامي الكثيرة التي تراودني فيها "جميلة" ذات الصفات المرغوبة وتمسكي "بنوارة" التي لم أحلم بصفةٍ من صفاتها من قبل، ومن النظرة الأولى صارت اللعبة "كش ملك" وفازت "نوارة" بقلبي، أما أنا فلستُ من ينسى، لستُ من يغدر ولستُ من يظلم، ولكن لي قلب سرقته أنثى من أنثى فمالي أنا بأمور النساء.

قالت وهي تشير بأصبعها: لم أفهم هذه النقطة من الدرس.

قلتُ: حسناً، سأعيد شرحها لكِ مجددا لكن في مقطع صوتي عبر الواتساب، ثم أضفتُ مبرراً: كي تتمكني من تذكرها متى شئتِ، غايتي كانت الحصول على رقم هاتفها، فأحسستُ أني خبيث نوعاً ما، لكن عذائي لنفسي أن الذي فعلته قد كان في سبيل الحب.

- حسناً...
- حسناً...

أخيراً جنّ الليل وأنا أسعد ما أكون، تعتريني لهفة الطفل الصغير، ففتحتُ الواتساب بعد أن حصلتُ منها على رقمها، شرحتُ النقطة التي استصعبت عليها ثم أرسلتُها في مقطع صوتي بعد أن عدلتُ صياغته أكثر من مرة، ثم أضفتُ بعد المقطع مساء الخير يا "نوارة" وبعد ساعتين من ظهور العلامة الزرقاء التي تؤكد قراءتها للرسالة، **أجابت**:

- مساء النور، أشكرك على الشرح.

لم تزد عليها شيئاً كأن الكلمات صارت تُباع وتشتري بعملات من الذهب.

- كيف حالكِ؟

طال انتظاري لرسالة أخرى منها حتى نمتُ ليلتي تلك وأنا أحتضن هاتفي كطفلٍ يحتضن حذاءه الجديد فوق فراشه، استيقظتُ على حركة إزعاج الفأر الذي أصبح نزيلاً معنا في الغرفة، إنها الخامسة صباحاً، نظرتُ في الواتساب لا رسالة من "نوارة"، أغلقتُ الهاتف ثم أسرعتُ للإستحمام قبل زحمة الطلبة كعادة كل صباح.

في الطريق إلى المجمع وأنا برفقة صديقاي، الطقس أجمل ما يكون علق "بُرعُم" **قائلاً**: الجو الجميل ده جو مِكواة بس والله، ويكون عندك كمية من الملابس، ولازم تكون مكواة فحم طبعاً.

علق عليه "برلماني": ده المتوقع من زول بقوم منتصف الليل من النوم بس عشان يعاين لي صورتو في الموبايل.

ثم خاضا في النقاش والجدال كالعادة حتى مررنا بأطفالٍ ونساءٍ عجائز يكسرن الحجارة بالحجارة ويجعلن منها حصى صغيرة تُستعمل في صب الأسمنت، نظر إليهن "برلماني" بألم شديد **وقال**: هنالك الساسةُ والبرجوازيون يفترشون الذهب والدولار وهنا على حافة الخريطة عجوزٌ تفتتُ الحجارة لتصيغ منها لقمة لها ولأحفادها اليتامى.

وعندما وصلنا إلى مطبخ "أمينة" وجدنا رفيقتنا "أمل" تجلس والحزن في عينيها فسألتُها: ما بكِ؟

قالت: حزينة على صديقتي "غالية".

قلتُ: من "غالية"؟ وماذا بها؟

قالت: طالبة في كلية الإقتصاد المستوى الرابع، هي من محلية مُكجر وقد غادرت الجامعة إلى الأبد.

قلت: لماذا؟

زمّت شفتيها ثم **قالت بحزن**: "غالية" كانت في علاقة غرامية مع "مهند" زميلها في الدراسة والذي كان قد وعدها بالزواج بعد التخرج مباشرة، وكانا قد تعودا على مراجعة دروسهما معاً في وادي أزوم المكان الذي إعتاد الطلبة والطالبات على المراجعة فيه سوياً، ثم أنه أخذ يراودها عن نفسها بين الحين والآخر إلا أنها كانت ترفض ذلك فهي نشأت في مجتمع محافظ متدين يهتم بشرف المرأة، إلا أنها رضخت له واستسلمت واتّبعت معه خطوات الشيطان لمّا وعدها بالزواج قبل أن يتخرجا حتى، فنال ما أراده منها وتلذذ بها كما يتلذذ الطفل بقطعة من الحلوى، يلعقها ثم يرمى بها في التراب.

مرت الأيام ثم الأسابيع وبدأت تظهر علامات الحمل على "غالية" التي كانت تحاول التستر على الأمر قدر الإمكان، طلبت من "مهند" أن يتقدم للزواج بها وأنها ستوافق بدون شروط، لكنه رفض متحججاً بأنه ليس جاهزاً لأن يكون أباً لطفل أو حتى زوجاً وهو مازال طالب.

وفي زيارة غير متوقعة من والدة "غالية" التي جاءت إلى مدينة زالنجي بغرض العلاج، اتصلت الأم على ابنتها وطلبت منها مرافقتها إلى المستشفى، وأثناء المرور بين غرفة الطبيب وغرف الكشف الطبي لاحظت الأم شحوب وجه ابنتها والتعب الظاهر عليها فطلبت منها أن تكشف أيضاً إلا أن "غالية" قد رفضت وأن ليس على أمها القلق فالأمر لا يتعدى كونه إرهاقاً فقط، اقتنعت الأم بكلام ابنتها لولا أنها أُغمي عليها بسبب الإرهاق، فحملها الممرضون وكشف عليها الطبيب الذي أوضح الحقيقة للأم أن إبنتها حامل، صُعقت الأم من الخبر ولم تدرِ ما تفعل فأوضحت الأمر لوالد "غالية" الذي جاء وتحدث مع "مهند" وخيّره بين أمرين، إما أن يتزوجها وإما أن يدفع مبلغاً قدره مائة ألف جنيه، فإختار "مهند" دفع المبلغ الذي به باع الوالد شرفه، كما أُجبرت البنت على ترك الجامعة.

أضافت "أمل" بحزن شديد إن "غالية" تمثل حال الكثيرات من بنات السكن الطلابي المكذوب عليهن بإسم الحب وبالتالي يفقدن عذريتهن على رمال وادي أزوم شرقي المدينة.

بينما آثر "بُرعُم" و"برلماني" الصمت لم أستطع أن أزيد أكثر من قولي: إن القلوب التي ترمي بالعفة بعيداً، لم تذق طعم الحب يوماً.

وللخروج من هذا الموقف الحزين أخرج "بُرعُم" هاتفه ثم التقط لنا صورة سيلفي و"أمل" في وسطنا ثم علّق ساخراً: (حلاوة ماكنتوش وسط حلاوة بقر)، ثم جاءت إحدى الصديقات وأخذت تتحدث مع "أمل" حول أمر ما، "بُرعُم" و"برلماني" يهمهمان بحديث خاص، فتفقدتُ الواتساب ووجدت أن "نوارة" قد ردت على رسالتي القديمة بقولها (الحمدلله) لم تزد كلمة أخرى، أحسستُ أنه ليس سهلاً عليَّ أن أفهم "نوارة" وكيف تفكر فهي كالكتاب المغلق داخل صندوق مظلمٍ ومغلق بقفلٍ حديدي في أعماق المحيط آناء الليل، فأغلقتُ الهاتف لما رأيت بُخلها بالحديث إليَّ وكأنها تتلذذ بتعذيبي.

•••

ثم يوم بعد يوم، وشيئاً فشيئاً يكثر الحديث بينهما فينحت أحرف اسمه على جدار قلبها كلما ألقى على سمعها إحدى الطُرفات، وفي يومٍ جلست وحيدة تنازع أوجاع حزنها العميق، فجاء ثم قربها قد جلس يسحب منها الحزن بحبٍ، **قال وهو ينظر لعينيها الذابلتين**: رغم الرِقة التي أودعها الرب فيكِ، رغم الذبول الذي أنتِ فيه الآن إلا أنكِ الأملُ للكثيريات، أنتِ القوة اللينة التي تحمل مسؤوليات بقدر الجبال، إلا أنك ضعيفة أمام مشهد فراشة تغازل زهرةً بدلال.

قالت بوجه قد أعاد نَضَارته وإشراقه: ليتكَ ما خُلقتَ رجلاً؟!

وقف عاجزاً أمام عبارتها تلك، هل تعيبُ خلق الخالق؟! أم تبحث عن عذرٍ يُبيحُ لها الغوص في أحضانه!

ثم حدثته عن الهموم والإلتزامات وضيق الأوقات وتجرع المرارات.

فحدثها عن جلسات الرفاق، حدثها عن فلسفات "بَرَكة داوود"، وعن ضحكات "صابر عبود"، حدثها عن طِيبة "الطيب صالح" وعن رُقي "هوندا" جميل الإبتسامات، حدثها عن فرحة الرفاق بزواج "حمزة فضل" و"أبو مشعل"، ثم حدثها عن فرحتهم جميعاً بنتائج المباريات، وبحبٍ أنشدها شيئاً من غزل الذات.

ثم تحدثا وتحاورا، تحدثا وتحدثا، عن ازدهار الأمنيات في ربيع الحياة، تحدثا عن جَمال البَجَعات، الراحلات، وتغريد القماري المُقيمات، تحدثا عن رزاز الغيمات وانهمار الدمعات، تحدثا عن جمال الشُجيرات الخريفيات وعن شذي الوردات القصيرات، تحدثا عن حب الفراشات الطائرات.

تحدثا عن جَمال اللوحات السودانيات والحضارات، وعن التراثيات وروعة الأُحجيات، تحدثا عن قِدم الأهرامات والمسطحات، تحدثا عن جبل مرة وروعة الأغنيات، تحدثا عن دارفور ونبذ القبليات، وعن السياسة وخُبث المؤامرات، ثم تحدثا وتحدثا.

"مسرحية"

المشهد الأول:

في مساء يومٍ حُدد كموعدٍ سلفاً، تجمهر الناس منهم طالبٌ ومُحاضرٌ وعاملٌ وسياسي، تجمهروا جلوساً على الكراسي والبينشات وآخرين وقوفاً على أرجلهم، أنظارهم جميعاً ناحية مسرح الجامعة، المسرح الذي يظل خالياً على عادته، يمرُ العام والعامين ولا يعتليه أحد إلا عابر سبيل أو مختصر طريقٍ بين قاعتين، أو عاملات نظافة يصعدنه لإزالة الأوساخ عنه وجَز الحشائش التي تنمو على أرضيته الأسمنتية المُشققة فلا سقف ولا حوائط جانبية.

وبعد دوزنة موسيقى النشيد الوطني التي أضافت الهيبة للموقف وأجبرت الجميع على الإبحار في بحر النشيد.

نحن جند الله ، جند الوطن

إن دعا داعي الفداء لم نخن

نتحدى الموت عند المحن

نشتري المجد بأغلى ثمن

ثم...

أُزيحت الستارة...

صفق الجميع بحرارة المُتَلَهِّفِ، ظهرت لافتة كبيرة مكتوب عليها "المستشفى التعليمي"، في الخلفية مجسمات طبية، هياكل عظمية و معدات مُختبرية.

على الجانب الأيمن تربيزة مكتب يجلس خلفها "خالد البدوي" بدوره كطبيب والذي حاز على جائزة أفضل ممثل مسرحي منذ آخر مسابقة مسرح قبل عامين، يجلس مرتدياً سُترته البيضاء وسماعته الطبية حول رقبته وعلى ذات التربيزة جهاز الضغط وجهاز آخر لقياس درجة حرارة الجسم، **فقال**: حاسس اني مهم جداً بالملابس دي، ياخي الواحد يداب يقدر يقول رأيو قدام المجتمع، حتى لو خطأ كلهم حيصدقوا ويصفقوا كمان.

فضحك الجميع ثم تصفيق حار.

على الجانب الآخر ظهر "محمد تاج" بدوره كمساعد للطبيب وهو يحمل ورقة في يده، فصفق الجميع مرة أخرى، رفع يده مُحيياً ثم إنحنى أمامهم بشكل مضحك، فزاد التصفيق حرارةً.

ثم قال بصوت عالي: المريضة "كلثوم بت أبو كلثوم ".

ضحكات وتصفيقات...

فدخلت فتاة باسكيرت أسود وبلوزة بيضاء، تتصنع صعوبة في مشيتها، تصرخ ويصدر من صوتها الأنين..

- ألحقني يا دكتور...
- اتفضلي، اتفضلي أجلسي.. بتشتكي من شنو يا أخت؟
- عندي مِراريا (ملاريا)، أكتب لي دواء سريع..
- عرفتي كيف عندك ملاريا؟
- أنا أصلاً ما قاعدة أمرض إلا في فترة الدَرَت – الحصاد – ودايماً مراريا.

ضحكات وتصفيقات...

- طيب طالما انك شخصتي مرضك، جاية عايزة مني شنو؟!
- مشيت الصيدلية لكن السجمانة الشغالة هناك قالت ما بتديني الدواء إلا بي روشتة طِبية.
- أيوة، لأنو ده الصح المفروض يحصل.
- قلت أدخر قروش الفحص يا دكتور، أنت عارف الحياة ضاغطة ومحتاجين لأي جنيه.
- فعلاً، بس الصحة أهم، عشان كده أمشي أعملي الفحوصات دي وتعالي.

ثم خرجت إلى وراء المسرح وعادت بعد لحظة فقط، تحمل ورقة في يدها، قدمتها إلى الطبيب:

- اتفضل يا دكتور...

أخذ منها الورقة، فتقمّص شخصية الطبيب ثم تظاهر بأنه يقرأ ما فيها فبدا الأمر مضحكاً، فتعالت بعض التصفيقات والضحكات.. ثم قال:

- أها يا أختي، طلع عندك إلتهاب في الدم وليس ملاريا.
- سجمي، يعني قربت نقتل نفسي.

أُغلقت الستارة...

فتعالت الموسيقى...

المشهد الثاني

أزيحت الستارة وسط صافرات المشاغبين المستمتعين.

ظهرت لافته أخرى مكتوب فيها " السوق " في صف طويل على الأرض تجلس تاجرات الخضار، وتُجار البصل والبطاطس يصرخون: (الكوم بي ألف، الملوة بي خمسة ألف).

على الجانب الأيمن يقف "جدو سيجارة" في دوره كجزار، سيجارته بين شفتيه وهو يُسن سكينه بحجر صغير فوق الطاولة.

جاءه شخصان هما " أحمد عربي و محمد زنجي" كزبونَين يرتديان جلابيتان (على الله)، طلبا منه كيلو لحمة على أن يُفاضِلَهما في السعر، فرفض الجزار طلبهما مما أثار غضبهما وسخريتهما، فركل أحدهما الطاولة بعنف وسقطت بذلك اللحمة على الأرض، فبدأ الشجار ببعض الشتائم واللكمات حتى أمسك الجزار بسكينه وغرسها في بطن " أحمد عربي" الذي كان يدير وجهه عكس الجمهور.

ولما أدار وجهه إلى الجمهور، كانت جلابيته البيضاء تتوسطها بقعة كبيرة من الدم (عصير كركدي).

ثم تجمهر تجار البصل والبطاطس لوقف الشجار وحملوا الرجل الملقى على الأرض ونزلوا به من خشبة المسرح.

أُغلقت الستارة...

تعالت التصفيقات والموسيقى...

المشهد الثالث

أُزيحت الستارة...

فظهر الطبيب مرة ثانية على كرسيه خلف الطاولة، سماعته حول رقبته، ثم صعد المنصةَ ذاتُ الجماعة الذين هم تجار البصل والبطاطس يحملون ذات الرجل المطعون بالسكين، يتقدمهم شخص يصرخ (وِيو.. وِيو.. وِيو) مُقلداً بذلك صوت عربة الإسعاف، فإنفجر الجميع بالضحك ثم تعالت التصفيقات.

ثم وضعوه على طاولة الطبيب الذي تظاهر بإجراء الإسعافات اللازمة بشكل كوميدي، وزاد الأمر فكاهة عندما خرج عن السيناريو وتذوق بإصبعه بقعة الدم التي لم تكن سوى عصير كركدي.

ثم بعد لحظات إعتلت خشبة المسرح مجموعةٌ من الشباب بشكل عشوائي يُعَلِّقون على أكتافهم بنادق خشبية وهم غاضبون و يصرخون: نحن أهل المصاب.

فقابلهم مساعد الطبيب (محمد تاج) وأخبرهم أن المصاب في غرفة العمليات، فجلسوا ينتظرون.

وبعد ثواني خرج إليهم الطبيب وقال بشئ من الحزن: البقاء لله.

فإنتفض أهل الرجل لما سمعوه وانهالوا بالضرب والشتائم على الطبيب لأنه فشل في إنقاذ حياته ووصفوه بالفاشل متجاهلين أمر القدر، ولما وقف دونهم "محمد تاج" وجّه أحدهم بندقيته تجاه الطبيب ومساعده ثم

طاخ.. طاخ..

وسقط الطبيب ومساعده جثتين بريئتين.

أُغلقت الستارة...

فتعالت التصفيقات...

وفي المشهد الأخير

وقف مجموعة منهم مع تقاسيم موسيقى هادئة ينشدون..

يا شعب، ابقى واعي

وما يكون فِعلك عدائي

الوطن واحد حَدّادِي مَدَّادي

و ينادي لكل الأيادي

تعالوا ياخ واجتهدوا في بِنائي

يا شعب ابقى واعي

وما يكون هَمّك فَرَّادي

الطبيب لينا يداوي

والمزارع يفلح أراضي

أجيالاً يربيها معلم وشيخاً في الخلاوي

ويَكْبَروا خِرِّيجاً سياسي وآخر مِعماري

يا شعب ابقى واعي

واتذكر ديمة انك سوداني

•••

وبعد سكون موسيقى المسرح..

وقف كل الممثلين في صف طويل وبذات الصف يقف "بُرعم" و " برلماني"

قال الشخص المنظم للمسرح..

نشكر كل من الطالب " خالد البدوي " مؤدي دور الطبيب.

والطالب " محمد تاج " مؤدي دور مساعد الطبيب.

والطالبة "خالدة الهادي" بدورها كمريضة.

والطالب "أحمد محمد أحمد" الشهير "بجدو سيجارة " بدوره كجزار.

والشكر لباقي الممثلين الثانويين، ونخص بالشكر كل من..

"أحمد برلماني" و "عَلِي بُرعم" على تأليفهما مسرحية (العشوائية).

•••

كانت المسرحية عرضاً مختصراً من تأليف " بُرعُم وبرلماني"

إنتقيا الفكرة من مستنقع الواقع القذر، الذي يضم العديد من قضايا العنف الجهوي وقد كانت عملاً مُشابهاً لقضية الطبيب الذي تعرض للقتل في المستشفى التعليمي على يد مجموعة من أهل شخص مصاب، وغيره كثيرون.

وبعد أن إكتملت المسرحية وتفرقت الجموع، مالت الشمس إلى مخدعها وشقشقت العصافير وداعاً ليوم فريد، فأسدل الليل ستاره وساد صمتٌ في المدينة عجيب، "بُرعُم" و "برلماني" استغلا سترة الظلام ومضيا إلى منزل "خديجة الفدادية" لينعما بساعات من المتعة الزائلة فجالساها وأضحكاها ثم:

اسقينا الخمرَ، والخمر مجراها اليَمينا.

•••

علاقة محرمة

في أمسية الأحد الأخير قبل الإمتحانات التي ستقام بعد ستة أيام، استحم "بُرعُم" وارتدى أجمل ما يملك، تعطر بجميع العطور الموجودة في الغرفة، مشط شعره جيداً ثم نظرَ إلى نفسه في المرآة **وقال**: والله يا جماعة أنا ربنا خلقني فتنة للبنات، ياخ ما ممكن الجمال ده كلو.

ضحك الجميع..

صاحبنا الليلة مزاجو رايق، "علّق فِريندو".

وقف "بُرعُم" ويده ممسكة بقبضة الباب، إلتفت إلى رفاقه **ثم قال**: أراكم غداً أيها الرفاق، سأقضي ليلتي هذه مع صديق لي، ثم خرج من الداخلية مسرعاً، بعد مسافة ليست بعيدة عن الداخلية تقف على جانب الطريق سيارة صغيرة بيضاء اللون، إقترب منها ثم فتح الباب الأمامي وهو يبتسم، تجلسُ بداخلها الدكتورة "سارة" أو الدكتورة "بسبوسة، نعناعة، الحُب" كما يطلق عليها "بُرعُم"، وهي نائبة العميد بكلية الطب، إشتقتُ لكِ.. اشتقتُ لكَ.. تلك أولى كلماتهما.. إحتضنا بعضهما بلذة، أخرج هاتفه واتصل بصديقه "سعد" الذي يقيم بحي طيبة جنوب سوق مُرين ثم أكد له "بُرعُم" أنهما في الطريق إليه، عشر دقائق من السير بالعربة، رومانسية داخل العربة، علاقة محرمة داخل العربة، محرمة لدى الجميع، مباحة لدى الاثنين.

في منزل "سعد"، وَكرُ العاشقين داخل الغرفة، فوق مفرش ناعم على سرير واسع، رائحة الصندل تملأ المكان، ليلة كاملة العاشقان يتراقصان.. يتغازلان.. يتداعبان.. ثم علاقة كاملة.

أشرقت الشمس، غنّت العصافير، صاحت الديوك، نعقت الحُمر، هدأت نباحات الكلاب، داخل العربة على المقعدين الأماميين في لحظة وداع بعضهما، أخرجت الدكتورة "سارة" من حقيبتها مظروفين، مظروف به ورقة إمتحان، ذلك ما استطاعت كشفه لعشيقها ليغش في الامتحانات، ومظروف به نسخة من ورقة إثبات زواجهما العُرفي الذي شهد عليه "سعد" وآخرون.

•••

في أمسية ذات اليوم، القمرُ ساطعٌ بدلال، النسيم يغازل النفس بحنان، خرج "برلماني" من الداخلية، سكينٌ في خصره، السكين حماية له من المجرمين الملثمين أطراف الداخلية، ذلك ما يظنه "برلماني"، خرج متجهاً إلى الساحة الشعبية، في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول، ليلة الإحتفال بذكرى ميلاد النبي الشريف، وصل "برلماني" إلى الساحة الشعبية.. الساحة ممتلئة.. مكتظة بالخيام.. خيامٌ لرجال الطرق الصوفية الداعين للإحتفال.. فوق المنصات شيوخٌ يخطبون في الجموع.. على الأرض درويشٌ يتلوى طرباً بما يقدمه شيخه من مديح والذي يقول أنه يعادل القرآن.. يتساءل "برلماني" ما إذا كان هذا الدرويش قد سقط قصداً أم أن الأدرينالين هو المسؤول عن فعله هذا!

على الجوانب براميل مليئة بالمشروبات البلدية، قربها أطباق للطعام (الفتة)، على الأطراف بائعات التسالي، الطعمية وحلوى المولد.. خلف الخيام.. بعيداً عن الأنوار والأنظار.. "برلماني" و"هند" رفيقته في المتعة والإحساس اللذيذ كما يصفها "برلماني".. أولاد وبنات يتبادلون الهمساتِ، اللمساتِ والقبلاتِ.. حتى إنقضت ذكرى الإحتفال بالمولد النبوي.. عيد المولد كما يسميه الشيوخ والأطفال وعِيد الموعِد كما يسميه الشباب.

•••

إنقضى الفصل الدراسي مع إنقضاء فصل الخريف، وعلى رمال وادي أريبو يجلس الآن كل من "معاوية"، "مزن"، "نوارة" و"فِريندو".. فَرِحِينَ بذهاب هموم الامتحانات وتكريماً لـ"فِريندو" الذي اجتهد معهم في شرح المواد الدراسية الصعبة عليهم، يجلسون على أحذيتهم وبأقدامٍ حافيةٍ تُغازل حُبيبات الرمل، يتلذذون بمحاصيل الخريف: القصب، البطيخ، الفول...

فريندو: في أمسية الجمعة الهادئة والجميلة، أجلس مع رفاقي الصغار، أجلس مع "نوارة" وأنا أستنشق رحيقها، أنظر إليها وهي في كامل تأنقها، تتحدث قليلاً وتبتسم كثيراً.

قام "معاوية" و"مزن" بعد أن قررا التمشي على رمال الوادي، الشمس قد قاربت على المغيب، تركاني مع "نوارة" التي بدا عليها الخجل واضحاً، كلما ازداد خجلها ازداد تمسكي بها، سألتها عن حالها، في محاولةٍ مني لكسر حاجز الصمت الناتج عن الخجل، أنا أسأل وهي تجيب بإختصار كعادتها.

جعلتُ أنظرُ إليها برقةٍ، فأزاحت عينيها عني هنيهة ثم عادت تنظر إليَّ بدلال

قالت: لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

قلت: أولم يقل الصحابي الجليل "أبو الدرداء": " إن تأملُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ يوم".

قالت: شتان ما بين التأمل الذي يقصده الصحابي وبين الذي تقصده أنت.

قلت: إنّ الله قد خلق السماء و الأرض، وخلق الشمس والقمر، وخلق الماء والشجر وكلها آيات تدعو للتدبر، كما خلق الجمالَ وأنتِ آية ذلك الجمال، وسأتأملكِ كما يجب...

سألتها عن أسرتها، **فقالت**: إنها وِلدت ونشأت في جنوبي نيالا وأن والدها تاجرعطورفي سوق نيالا، أما والدتها فهي ربة منزل ليست لها وظيفة لأنها تفضل البقاء والإعتناء "بنوارة" وإخوتها.

سألتها بطريقة مباغتة: ما رأيك بقصص عشاق العرب "عنترة وعبلة، مجنون ليلى وكثيرعزة"؟

قالت: هؤلاء أشخاص أَحَبّوا وصَدَقُوا حتى أصابهم الجنون.

قلت: لنضع اسمَينا بينهم.

قالت: ماذا تقصد؟

قلت: خذي قلبي، ثم دُلِيني كيف السبيل إليك.

تبسمت وكأنها تَدّعِي الغباء ثم **قالت**: لا أفهمك؟

قلت: أحبكِ يا "نوارة".

إزدادت الحُمرة على خديها، صمتت وقبل أن تجيبني جاء "معاوية" و"مزن" و أخبراها بأن الوقت قد تأخر، فإستأذنوا بالرحيل متجهين إلى السوق وسرتُ أنا وحيداً إلى الداخلية.

تحكي "نوارة":

في طريق العودة طلبتُ من "مزن" أن تأتي للمبيت معي، رفضت في بداية الأمر لكنها وافقت لما ألححتُ عليها وأخبرتها أن لديَّ ما أخبرها به ، إتصلت بوالدتها وأخبرتها أنها سوف تقضي ليلتها هذه معي، فارقنا "معاوية" عند التقاطع أمام مسجد السوق الكبير، ركبنا نحن مواصلات الثورة واتجه هو إلى الحصاحيصا غربي الجامعة حيث يقيم مع عمه، "معاوية" هو من ابناء مدينة الفاشر يرفض السكن الداخلي ويفضل البقاء مع عمه، وصلنا المنزل مع غروب الشمس، حيث أقيم مع خالتي، استقبلت خالتي "مزن" بلهفة شديدة وعاتبتها بأنها لم تعد تأتي إلى منزلنا كثيراً كما الماضي، تعذرت "مزن" أن الضغط الأكاديمي قد زاد خلال الفترة الأخيرة.

ذهبتُ لأستحمَ وتركتُ "مزن " تُلاعب "سندس" بنت خالتي الصغرى والتي تحبها حباً شديداً، "مزن" ليس لديها أختاً أو أخاً صغيراً، هي أصغر إخوتها لذلك كانت دوماً تحب أن تحضن "سندس" وتُلاعبها بحنية؛ لتعوض عن نفسها هذا النقص والشوق.

بعد الاستحمام وبعد العشاء دخلنا الغرفة جلستُ في منتصف السرير و"مزن" قد إستلقت على السرير المقابل وهي تنظر إلى هاتفها.

قلت: لم أطلب منك المبيت معي لتمسكي هاتفك طول الليل.

قالت: أريد أن أطمئن على قلبي قبل أن أنام.

قلت: ألن تسمعي ما عندي إذاً ؟

وضعت هاتفها جانياً ثم **قالت**: حسناً قولي ما عندك.

قلت: لقد نجحت الخطة وأسرع مما توقعنا.

قالت: لا تمزحي**!**

قلت: بلى ، لقد قالها بأسلوبٍ ساحر " أحبك يا نوارة ".

قالت: وماذا فعلتِ**؟**

قلت: لا شيء ، لقد أحسست برجفةٍ كأن أحدهم سكبَ عليَّ ماءً بارداً في ليلة شتوية قارصة، لم أستطع الكلام رغم أنني كنت متشوقة لسماعها.

قالت: يجب أن تختفي الأيام القادمة.

قلت: لماذا ؟

قالت: يا مبتدئه ، إن الحب ينضج كلما تعرض لنار الحرمان.

قلت: ألا يكفي حِرماناً أنني لا أرد على رسائله حتى ييأس مني؟

قالت: لا عليك فقط إلتزمي بالخطة.

قلت: حسناً، وأشكركِ لأنك في تلك الليلة أخبرت "معاوية" أن يتصل به ويطلب منه أن يراجع لنا بعض الدروس.

قالت: وجبَ عليَّ مساعدتك، رغم أني لا أعلم سر تمسككِ به؟

رأيته في نيالا أول مرة، قبل شهرين من قدومي إلى جامعة زالنجي أول مرة، كنت قد ذهبتُ إلى السوق لأشتري بعض الأغراض، وبسبب الزحمة الشديدة التي يتصف بها سوق نيالا في الفترة الأخيرة، حدثت مشاجرة بين رجلين بسبب إصطدامهما مع بعضهما، ثم صارا يتشاتمان وكل منهما يسب قبيلة الآخر بأسوأ الألفاظ العنصرية، وكادا أن يتضاربا، فجاء مجموعة من الشباب يرتدون سترات زرقاء مطبوع عليها شعار جمعية متكافلون الخيرية، فقد كانت لديهم حملة نظافة للسوق، فَرّقوا بين المتشاجرين، وقف "نبيل فِريندو" في المنتصف ثم بدأ يخطب في الجمع دون أن يفصح عن اسمه حينها، ومازلت أذكر حديثه كلمة كلمة.

قال: (في الحديث عن كينونة الشعب السوداني ونبذاً للعنصرية وإجابةً لمن يرى فينا العروبة دون الكينونة الأفريقية ورداً لمن يرى فينا العكس؛

نحن شعبٌ لا نُقوقع أنفسنا في العروبة فقط أو الأفرقة فحسب، ولكل من أراد ذلك فليُفَكِر مَلِياً؛ فَكَينُونتنا السودانية لا تقبل التحزب، لا نميل إلى القومية العربية برغم براعتنا في الحديث باللغة العربية وتعدد القبائل العربية فينا، ولا نكتفي بأفريقيتنا فحسب برغم جغرافيتنا وكل ثقافاتنا وموروثاتنا الأفريقية، تكفينا فخراً كينونتنا السودانية.

التنوع القبلي الموجود في السودان يمكن أن يكون هو الأعظم من بين باقي الدول ضمن المنطقة، فهل يمكنكم تصور شكل الدولة التي يمكن أن تنتج إذا إنصهرت هذه القبائل والطوائف الدينية والمجتمعية المختلفة مع بعضها؟

نحن بحاجة لأن نتخلى عن مقولاتنا السائدة والتي تجعلنا ضمن الطائفية الجهوية، لا يمكن أن تكون عبارة "الأمباي أو العبد" هي الحديث الوحيد للعربي تجاه الزنجي، كما لا يمكن أن تكون عبارة "قزازة عرقي ولا خُوة عربي" هي فكرة الزنجي عن الفرد العربي.

نحن بحاجة لأن نوحد الكلمة والفكرة لنمضي في الصراط المستقيم، وهو صراط بناء الدولة السودانية، فتقبّلوا بعضكم يتقبّلكم العالم...)

ثم شق الجموع واختفى في زحمة السوق...

ثم بعد شهرين بعد أن جئت إلى الجامعة وأكملت إجراءات التسجيل، ذهبت إلى المجمع الطبي جلست عند النشاط الغربي وهو اليوم الذي تعرفت عليكِ فيه لو تذكرين، ثم رأيته فجأة يدخل

من البوابة، كان متوسط القامة، جميل في إبتسامته، أنيق في ملبسه، واثق في خطواته، جاء وجلس مع رفاقه بالقرب منا، شعرتُ بكرم القدر فصرتُ أتلصص إليه بنظري حيناً وأسترق السمع حيناً آخر، ومنذ ذلك اليوم قررت أن أُوقِعَهُ في شباكي.

- لقد خالفتِ القاعدة يا صديقتي.
- أيّ قاعدة تقصدين هذه المرة؟
- الأنثى تعشق بما تسمع، أما الرجل فيعشق بما يرى.
- ما معنى هذا الكلام؟
- أي أن الرجل يعشق المرأة عندما يراها جميلة في هيأتها فيتغزل بها، حينها تعشق الأنثى حديثه ومفرداته الغزلية فتعشقه.
- حسناً ، اعتبريني الحالة الشاذة لهذه القاعدة.
- حسناً، لكن أتعلمين! بعد هذه الخطة الناجحة من العيب أن يظن الرجال أنهم فقط القادرون على إيقاع النساء في الحب، نحن أيضاً لنا خطط عظيمة.
- أجل، يا صديقتي، لكن ليبقى هذا الأمر سراً بيننا.

•••

مَرَّ يومان منذ أن أفصحتُ "لنوارة" عن حبي لها، ومازلت أترقب جوابها، فإما القبول أو الرفض، لا خيار آخر بينهما.

وفي صباح اليوم الثالث إستيقظتُ على صوت رسالة في الواتساب، إبتهج قلبي وابتسم وجهي لما علمت أنها المُرسِلة!

قالت: صباح الخير.

قلت: صباح النور.

عجباً! إنها متصلة الآن بل أنها تكتب شيئاً الآن...

- السلام على قلبكَ الحنون.
- بل تقصدين السلام على قلبي الحزين.
- ولما الحزن أيها "النبيل"؟
- صمتكِ عليَّ ثقيل؟
- أما علمتَ أن الصمت دليلٌ.
- دليلٌ على ماذا ؟
- دليلٌ على القبول.
- تقبلين بي حبيباً إذاً؟
- بل إن شئتَ أن تجعلني في قلبك مقيمة.
- بل أنتِ في قلبي أميرة، فلو تعلمين كم كنت وحيداً بدونك!
- وكيف صرتَ الآن؟
- صرتُ أشجع وأغنى الناسِ بقربك مني.
- حسناً، لنلتقي بعد ساعةٍ في المجمع.
- حسناً، يا معشوقتي.

نهضتُ مسرعاً، تجهزتُ للموعد، خرجتُ متأنقاً، وصلتُ المجمع مُتلهفاً، عبرتُ البوابة مُتَبسِماً، من الخلفِ صوتٌ رقيق يحمل اسمي، هي "نوارة".

رأيتها، بعد أن عشتُ صبراً وكفاح

بَدَتْ وكأنها قمرٌ في الآفاق قد لاح

رأيتُ بريقاً، وبه بات قلبي عزيزٌ مرتاح

نادتني بصوتٍ كعصفورٍ يشقشق في الصباح

صوتها! أزال عني كل غشاوة دون كفاح

صوتها رنة، به غنة، عيناها جنة، يالها من طلة

عيناها بحرٌ أقاوم أمواجه فأنا المَلّاحُ

يداها بستانُ زهرٍ، منه عطرٌ قد فاح

ولما اقتربت قلتُ يا أميرة مهجتي

بدونك، وحيدٌ أنا كعصفورٍعليل الجناح

تَرَبَّصه قطٌ فألقى حمله للرياح

ثم جلسنا عند مطبخ "أمينة"، نحتسي قهوة، نطلب شاي، نأكل شوكلاته ونثرثر بحُبٍ حتى اصفرت الشمس...

•••

رُسل السلام

الوقت ظهيرة والجموع غفيرة..

"وَن-دَي، فِريندو، بُرعُم وبرلماني" في سعيهم الجاد نحو السلام قد جمعوا الناس بسحناتهم المختلفة في ندوة من ندواتهم الدورية؛ ينفخون فيهم روح الإخاء ويقتلعون من قلوبهم بقعة الجهوية والعنصرية، وقف على المنصة "فِريندو" يحكي عن الدولة الواحدة والشعب الواحد، **قال**:

"ممارساتك العدائية يا أخي السوداني ضد أخيك السوداني لا تزيد من قدرك بقدر ما تحط منه، يا أخي سِمتُك اللونية التي وهبها الرب لكَ ليست مدعاة للتفاخر والتعنصر بقدر ما هي مدعاة للشكر والحمد، فطالما أنت لا تملك الإختيار في طبيعة خلقك فلماذا التعنصر إذاً؟"

ثم أضاف بمبدأ بسيط...

وإذا كانت الأنثى سواء أكانت بشراً أم حيواناً تستطيع أن تحمل في بطنها الصغير هذا من الإخوة التوائم الاثنين والثلاثة أو أكثر فما رأيكَ ببطن هذا البلد الكبير، كم يستطيع أن يحمل من الإخوة؟ كم قبيلة أو طائفة دينية ومجتمعية يمكن أن يحتويها؟!

فلماذا التنازع يا أخي السوداني، في حين أن كل قبيلة وكل فرد يستطيع أن يتغذى وينمو في هذا البلد الكبير، فلا داعي لإجهاض بعضنا الآخر.

ثم أضاف بصوت مملوء بالنصح والرجاء...

يا أخي فِعلك العدائي هذا لا يمكن أن ينتج عنه سوى التشظي في حين أن الوحدة هي الخيار الأمثل لهذا البلد الكبير.

يا أخي مفاخرتك بلونك الأبيض الذي تقول أنه لون السيادة، أو مفاخرتك بلونك الأسود الذي تقول أنه دليل الفحولة والتحمل والقوة الجسدية والجنسية، كان من الممكن أن يجعل الرب لونك الأبيض هذا أخضراً ولونك الأسود يجعله رمادياً، حينها أي اللونين يدعو للتفاخر؟ يا عزيزي لا داعي للتفاخر والتعنصر طالما أنك لا تملك الإختيار.

قد كان الناس بسحناتهم المختلفة ينصتون بآذان صاغية، البعض يتفاعلون بإيماءة القبول على رسالات رُسل السلام، والبعض يردد: أحسنتم.. أحسنتم.. والبعض يصفق بحرارة.

كان كلامه يسري كالبنسلين في عروق الناس، ولكن قبل أن يكتمل مفعوله، طغت على كلماته واغتصبت هدوء السامعين صوتُ طلقة نارية تبعها صراخ مدوي لشخص سقط أرضاً والدم يسيل من أسفل ظهره، ضجّ الجميع، منهم خائف ومنهم غاضب، ثم صرخ شخص يرتدي قميصاً أبيضاً وبنطالاً أسوداً يقف قرب الضحية: لقد رأيتُ القاتل، إنه طالب يقيم في السكن الطلابي...

صُدِم الجميع بما سمعوا، أخذ البعض يردد في وجه "فِريندو" ورفاقه: أهذا هو السلام الذي تنشدون، والله لن نقبل إلا بالدم...

كان الضحية يتبع لقبيلة "الجماعة الطيبين"[٧]، وقف "وَن-دَي" طالباً من الجميع الهدوء حتى يتضح الموقف فهو ينتمي لذات القبيلة، وهي ذات القبيلة التي ينتمي إليها زعيم المنطقة ورئيس البلاد الكبيرة، وهي قبيلة تملك العدد والسلاح ولها السلطة في إشعال النار وقتما شاءت.

---

[٧] - الجماعة الطيبين: لفظ يستخدمه السودانيون للإشارة إلى من يتصفون بصفات سيئة، ويخشى المجتمع من الحديث عن ذلك...

في اللحظة التي ساد فيها الضجيج وصلت سيارة أمنية ونزل منها أفراد مسلحون بسرعة، من خلف المتجمهرين وبذات السرعة إعتقلوا "فِريندو، بُرعُم وبرلماني" وتركوا "وَن-دي" وهو بين المتجمهرين يحاول محاولات فاشلة لتهدئة الموقف، وعلى الصندوق الخلفي لعربة الكروزر كان "فِريندو" ورفاقه جالسين يُمارس عليهم الضرب والتنكيل من قِبَل رجال الأمن ومعهم ذات الشخص الذي كان يقول: رأيتُ القاتل، إنه طالب، كان يضرب ويضحك بخبثِ مَن زرع الفتنة ونجح، فهو يتبع لجهاز الأمن مهمته التجسس وأن يشوه صورة رُسل السلام في أعين الجميع.

وبعد رحلة من السب والضرب وصلوا بهم إلى معتقلات جهاز الأمن، المكان الذي هو أقرب لأن يكون مقبرة من أن يكون غرفاً بأبواب وفتحات على أنها منافذ هواء، المنافذ التي ينفذ عبرها صرخات المعتقلين المعذبين أكثر من نفاذ الهواء.

بعيداً عن مركز المدينة وضوضائها، عند الهامش المخيف.

تجمهرت جماعات من قبيلة "الجماعة الطيبين"، أحاطوا بسكن الطلبة دون الطالبات، تجمهروا بخيولهم، إبلهم وعرباتهم، بأسلحتهم وسكاكينهم، بعد أن فشل "وَن-دَي" كل الفشل في تهدئة نفوسهم الساعية للإنتقام، أغلق الطلبة البوابة على أنفسهم واحتموا داخل سكنهم، أفراد من قبيلة "الجماعة الطيبين" أطلقوا طلقات نحو الأعلى لإخافة الطلبة الذين حملوا الحجارة والعِصي، فتكالب الفريقان إلى

البوابة، فريق يحاول فتحها وفريق يمنع ذلك حتى سقط أحد الطلبة جثة بفعل رصاصة إستقرت في صدره من سلاح مراهق لا يتجاوز الخامسة عشر من عمره، ففزع الطلبة وتراجعوا وبعضهم إشتد غضبهم فأخذوا يلقون الحجارة عليهم من وراء البوابة ففُتحت رؤوس بعضهم وبدأت تنزف دماً كينابيع متفجرة، فثاروا بجهوية وأخذوا يطلقون هوائياً بشكل جماعي وعنيف، فزع الطلبة وتراجع بعضهم وبقي قلة بمواجهة جماعة مسلحة، فتصارعوا على الباب حتى فُتح، تدافعوا إلى الداخل وأخذوا ينهبون الطلبة هواتفهم وأجهزتهم الذكية بقوة السلاح، وذلك أنهم لا يعرفون شكل القاتل، بل لأن القاتل ليس هنا وإنما هو في مكتبه في مبنى جهاز الأمن يضحك بإنتصار.

ثم صاروا ينهبون الركشات والتكاتك والعجلات الكهربائية التي تتبع لبعض الطلبة، وكلما حاول طالب الدفاع عن نفسه أطلقوا على ساقه فيرموه مضروباً مكسوراً.

ثم بعد ساعات جاءت عربتان من الشرطة كإجراء تمويهي بعد أن خرج "الجماعة الطيبين" من السكن وبعد أن نهبوا كل ما كان بإستطاعتهم نهبه.

•••

المقاومة

بعد أن قضى "فِريندو، بُرعُم وبرلماني" ثلاثة أيام بلياليها في معتقلات جهاز الأمن، يُمارس عليهم كل أساليب التعذيب من ضرب وصعق وتعريض الجِلد للبلاستيك الساخن لإستخراج المعلومات عن إنتمائهم الحزبي والسياسي، في حين أن حزبهم الوحيد هو الوطن ودستورهم الإنسانية ورؤيتهم بث السلام.

أُفرِج عنهم ثم عادوا إلى السكن هياكلاً يُرى فيهم العطب، هلل الطلبة بقدومهم، استحموا وأكلوا ثم ناموا بعمقٍ.

وعند المساء بعد مغيب الشمس استيقظ "فريندو" وجد نفسه وحيداً في الغرفة، وردته مكالمة من "نوارة" فتبسم لسماع صوتها، لها بحة في الصوتِ كأن الحروف والكلمات تخرج حزينة على فراقها، تآنسا بلغة الحب العفيف حتى قطع حديثهما "جِدو سيجارة" الذي دفع الباب بطريقة عشوائية، دخل و سيجارته بين شفتيه، نظر إليه بحدةٍ، سحب من سيجارته نفساً عميقاً، أغلق عينه اليسرى جزئياً ثم أخرج دخاناً كثيفاً ليكون بذلك قد وصل ذروة لذته **ثم قال**: يا شاب، مطلوب حضور الجميع في المسرح الآن.

سأله عن السبب **فقال**: ستفهم حالما تنزل إلي المسرح في وسط حرم الداخلية، تحجج بأنه في عجلة من أمره لإخبار البقية بالأمر، ثم ذهب هو إلى الغرفة المجاورة وخرج "فريندو" إلى المسرح.

رياحٌ خفيفة تحمل جزيئات باردة؛ معلنة بذلك عن قدوم فصل الشتاء، وصل "فِريندو" المسرح، المنصة خالية، كثيرٌ من الطلبة يجلسون على الأرض وعلى المقاعد أطراف المسرح، فجلس على الأرض أيضاً ينتظرُ بشغفٍ أن يفهم الحاصل، وهو يعلم في قرارة نفسه أن رفيقيه لهما علاقة بهذا الأمر...

ذات الرياح الخفيفة حملت إلى أُذنه حديث بعض الطلبة وهم يتذمرون من برودة الشتاء، قالوا عنه: شديد الإطلالة، جاف المنظر، كئيب اللحظات، مُكسِل الأجساد وقاتل الأحياء، فجذبه الأمر إلى الحديث معهم، **فقال مدافعاً**: أوليس ظلماً ما قلتم عنه؟!

ثم قال بحبٍ: اسمعوا لأخبركم عنه بتفاؤل "إن الملوك بِطَلّتِها تُعرفُ وما شيمة الحضور إلا الإنحناءُ والتعظيم؛ كذا فعلت الأزهار والأشجار لما ألقت كسوتها الخضراء، والأجسادُ ما تَقَّرحت إلا لتُحظى به في داخلها لتُسكِّنُ من أذى الروح وأنينها.

جاء إلينا بكسوته البيضاء ليذهب عنا سواد الأيام التي عشناها.

فيه نعيشُ معنى الدفء ونودع دموع الأجساد – العرق – فلا تجزعوا منه واحتضنوا فيه بعضكم بعضا، كونوا ملاذ الدفء فيه للأحبة، جَدِدُوا مواثيق السعادة، أضرِموا نيران الحب وخذوا الدفء منها، أشبِعوا رغباتكم القلبية وقبّلوا مواضع الشوق فيكم، وإن عُوتِبتُم، فقولوا: إنما نحن معشر المحبين وهذه شِيمنا، فلا صُراخكم يهزنا ولاعتباكم يذلنا، فقط نحن للجمال مقدسين وللشتاء عاشقين..."

- ضحكوا ثم قالوا ما هذا الذي تقول؟
- عفواً هذه أمنيات عاشقٍ أشقاه الحنين.

عشر دقائق مرت، جاء "بُرعُم وبرلماني" برفقة "وَنْ-دَي" وثلاثة شباب آخرين، فتأكد "فريندو" من ظنه، صعدوا المنصة جميعاً ثم بدأ "برلماني" **قائلاً**:

مرحبا بمن ظُلم وصبر

مرحبا بمن قاوم فاقتدر

مرحبا بمن ناصر مظلوماً فانتصر

مرحبا بمن سار على الدرب وعبر

ثم مرحبا بمن سمع واعتبر

ولا مرحباً بمن رأى ولم يعتبر

أُحييكم يا رفقاء الوجع، المعاناة، الضغط والصبر.

إخوتي، ظللنا طيلة السنين الماضية نعاني السلب والنهب خارج وداخل محيط الجامعة، الخوفُ صار رفيقنا الملازم، وفَقْدُ الرفاق صار أصعب أوجاعنا.

قد سمعنا للتو عن حادثة النهب والضرب التي صارت هنا من قِبل أشخاص مسلحون ونحن في المعتقل، والمفجع في الأمر أن عملية النهب تمت داخل حرم الجامعة وعلى أراضيها، أين الأمن الذي يتحدث عنه الساسة والإداريون، أين الحرس الجامعي ورجال الأمن الذين لم أرهم منذ أن وطأتُ هذه الجامعة؟!

يا رفقاء الجامعة، السكن، الكفاح والنضال، سنقاوم رغم الوجع، لنجفف نهر الدماء الذي يسيل من تحتنا، هذه ليست عملية النهب الأولى لكنها يجب أن تكون الأخيرة، كما أننا نعلم جيداً أن كل هذا السيناريو ما هو إلا رد فعل مبالغ فيه لما نقدمه من عطايا للمجتمع نحو السلام، السلام الذي لو كان لَمَا حدث ما حدث، ولكنها تلك اليد التي تعارض كل من جاء بالسلام؛ لأجل أغراضٍ شخصية وأخرى أجنبية وأعجمية.

"لا تعليم في واقع أليم".. كذا هتف "بُرعُم"..

ثم هتف "وَن-دي": "وحدة قوية، طُلابية"..

إسترسل "برلماني" **قائلاً**: هي الثورةُ يا إخوتي، وليسمع كل ظالم، فلا خِيار آخر غير الهتاف عالياً.

الأحد القادم ستكون المظاهرة الأقوى في تاريخ الجامعة، وتظل المظاهرة هي أعنف الردود السلمية، اجهزوا لها جيداً، فلا تكاسل ولا خُذلان.

"لا تعليم في واقع أليم"...

"وحدة قوية طُلابية"...

هتف "وَن-دي" و"بُرعُم" ثم تبعهم كل الطلبة هاتِفِين...

فِرِيندو: مر أسبوع كامل من التخطيط للمظاهرة القادمة..

في صباحِ الأحد تعالت الهتافات والرايات كلما تعالت الشمس، مواكبٌ من الطلبة والطالبات، أعداد كبيرة من المتعاونين والمتضامنين من بائعات الطعمية، بائعات الخضار، بائعات الشاي، فِتية الورنيش (تلميع الأحذية)، سائقي الفناطيز، سائِقي التكاتِك، الجزارون، الخياطون، الفحّامون، عُمّال اليوميات، أصحاب الأجور الزهيدة، الفقراء، المشردين والمجانين، كلهم انضموا لمواكب الطلبة؛ للمطالبة بحق الأمن.

في المقدمة "وَن-دَي، بُرعُم وبرلماني" بجانبهم أنا و"نوارة" والمئات من الأشخاصِ الهاتِفين من خلفنا.

بعد أربعين دقيقة من السير مُرددين الهتافات الثورية، وصلنا الساحة الشعبية التي يقابلها من الشمال مكتب الوالي ومن الغرب الجامعة، هتافات متواصلة، "لا تعليم في واقع أليم" كذا هتف "برلماني" وهو جالس على كَتِفَي "ون-دي وبُرعُم" ثم استرسل **قائلاً**:

هُنا واليوم ستشهد الأرض من تحتنا على ثورتنا، ستشهد الطيورُ الحائماتُ من فوقنا أن أصواتنا ملأت الفضاء، ستشهد الأشجار والجبال من حولنا بزلزلة أقدامنا.

لسنا وحدنا، فأرواح أصدقائنا الموتى المظلومين تحوم من حولنا، سنسطر التاريخ ونصوغ دستورنا اليوم...

"لا تعليم في واقع أليم" قد هتف الجميع..

استمرت الهتافات ساعة وبضع دقائق، جاء وفدٌ من الدكاترة بقيادة مدير الجامعة الجديد، وقف المدير قرب "برلماني" وبقية المتظاهرين من خلفه ناظرين، أثنى المدير على المظاهرة، أوضح أن الجامعة قد تغافلت عن قضية الأمن داخل حرمها طيلة الأعوام الماضية، ثم تَوَعّدَ أن الإدارة ستسعى لزيادة أعداد رجال الأمن الجامعي والتأكد من التزامهم بفترات الدوام.

قد سمعنا من المدير ما أردنا، أصواتنا مازالت تملأ المكان صخباً، لم تكتمل مظاهرة اليوم بعد، فمازالت قضية الأمن خارج الجامعة لم تُحل، مازال الطلبة والمواطنين سيتعرضون لمزيد من النهب والنهب.

قضية الأمن خارج الجامعة ليست من مهام إدارة الجامعة، بل من مهام الشرطة، شمال الساحة الشعبية مبنى مكتب والي الولاية، أمام البوابة قواتٌ أمنيةٌ بعتادها يراقبون المتظاهرين، بهتافات عالية وخُطى ثابتة إتجه قادة المظاهرة نحو مكتب الوالي، فتَبعهم الجميع: الرجال، النساء، الأطفال، الطلبة والطالبات.

حمل الضابط مكبر الصوت بيده، وقال بصوت جهور: لا أحد يقترب وإلا تعاملنا بعنف.

ليست إلا مطالب، بل الأمانُ حقٌ يجب الحصول عليه. "هكذا قال برلماني"

بينما "برلماني" يتحدث مع الضابط طالباً منه مقابلة الوالي، أُلقيت ثمرة طماطم فاسدة على صدر الضابط، لوّثت لبسته البوليسية، لم يلحق الضابط أن يغضب؛ جاءت قاذورات أخرى وارتطمت بوجهه وجسده، كانت القاذورات تُلقى من بعض المتظاهرين، حاول "برلماني" وبقية القادة منع المتظاهرين عن رمي القاذورات؛ لأن بهذا التصرف تكون المظاهرة قد إنحرفت عن مسارها السلمي، بدأت قوات الشرطة بجلد المتظاهرين وإطلاق الغاز المسيل للدموع، انسحب بعض من المتظاهرين، سقط البعضُ وآخرون بدأوا برمي الحجارة على الشرطة، تحولت السلمية إلى عنف كامل وواضح، فبدأت "نوارة" تجذب يدي وتطلب مني الإنسحاب، بدا الخوفُ واضحٌ في نبرة صوتها ونظرة عينها.

فقلتُ: هل نغدر بأصدقائنا؟

قالت: لقد غدر بنا البعض منذ أن انحرفوا عن مسار المظاهرة السلمية.

فبدأنا نشقُ الجموعَ مُنسحِبين، يدي ممسكة بيدها بقوة، عيناي تؤلمانني بسبب الغاز الذي أطلقته قوات الشرطة، أسيرُ وأنا أشعرُ بأنني متخاذل كبير، صرنا في مؤخرة التجمهر، وقبل أن نتجاوز الصف الأخير، سمعنا صوت إطلاق نار، ثم صرخات عالية، تفرق الجميع بمختلف الإتجاهات، تسمرتُ مكاني عندما سمعت الصوت، التفتُ إلى الخلف، اقتربتُ بخوف.. "بُرعُم" جالسٌ القرفصاء على الأرض، "نوارة" تجذب يدي لنغادر، اقتربتُ أكثر، فصُدمتُ عندما رأيتُ "برلماني" ببنطاله الجينز الأسود وقميصه الرمادي المخطط و"وَن-دَي" بلبسته الاشتراكية البُنِية ممددان على الأرض، "وَن-دَي" جامد وبارد، هادئ، بل جثة هامدة، اقتربتُ أكثر وجلستُ قرب "برلماني" الذي أمسك بيد "بُرعُم" وهو يلفظ آخر أنفاسه، قال بصوت فيه خَرير:

لا تحزنا يا رفيقيّ فالتراب الذي يختلط بالدم يصبح وطن.

إذا مِتُّ اليوم فضعوا جثتي في مشرحة كلية الطب، وليذكرني كل ثائر.

ثم هدأت أنفاسه حتى توقفت وعيناه شاخصتان نحو السماء، يده قابضة كومة من التراب، مات "برلماني" وأُضيفت دماؤه لنهر الدماء الذي ناضل لتجفيفه، روحه الآن تعانق أرواح الرفاق المظلومين في الأعلى، فالسلامُ والسلام على روحك يا صديقي.

في صباح اليوم التالي، استيقظ الطلبة حزينون منهكون بعد قضاء ليلتهم في تشييع جثامين أصدقائهم، أصبحوا على قرارٍ اعتادت الإدارة أن تتخذه في مثل هذه الظروف، قرار إغلاق الجامعة إلى أجلٍ غير مسمى؛ لتُخمد بذلك نيران المظاهرةِ التي أوقدها الطلاب واستغلتها الأحزاب السياسية المعارضة للحكم العسكري والمركزي للبلاد، ذلك ما صرّح به مدير الجامعة في بيانه الذي أملاه عليه والي الولاية.

فغادرنا المدينة وحزننا على فراق "برلماني" لا يضاحيه حزن، وبقي "بُرعُم" يُقاسي أوجاع الذكريات.

نِيالا الجَمال

نِيالا أُم عِيال .. العِيشة فيك هنية..

يا الخضراء أُم رِمال .. يا السمحة زي بِنية..

تلك أغنيةٌ تتغنى بها مجموعات في أرجاءِ منتجعِ روابي البحير على الضفة الجنوبية لوادي برلِي بمدينة نِيالا، مجموعات تتسابق شِعرياً لوصف جمال مدينة نيالا بأغاني وأشعار قديمة وجديدة، نيالا التي جمعت بين الجبال والرمال والأشجار والبُنيان فصارت عنواناً للجمال، ومجموعات أخرى من سكان المدينة يجلسون على المقاعد والسجادات يضحكون، يمرحون، يلتقطون الصور للذكرى، وآخرون من وراء سياج المنتجع وعلى رمال الوادي بأقدام حافية يلعبون الكرة الطائرة.

نسماتُ الهواءِ الحَنونة تُلاطِفُ هامات الأشجار العالية، وأشعةُ الشمس تتسللُ بدلالٍ من بين غصونها لتسطع على وَجْهَي "نبيل فريندو" و"نوارة" وهما يجلسان تحت ظل أشجار النيم والبان المتراقصة أفرعها.

عادا إلى نيالا كعاشِقَين صادقين، بعد أن أغلقت الجامعة أبوابها في وجوه الطلبة، تذوق "نبيل" القهوةَ التي أحضرتها لهما الفتاة الصغيرة التي تعمل مع بائعة الشاي والتي تضع موقدها قرب شجرة النيم العملاقة وسط المنتجع.

- هلا تغمسين إصبعك في قهوتي؟ يطلب "نبيل" من "نوارة"..
- لماذا؟ "نوارةُ" تسأله بإبتسام..
- القهوة سكرها قليل.. أجاب "نبيل" ثم أضاف متغزلاً..

أتظنين أن النمل الذي من حولنا ظهر مصادفة، بل جاء طمعاً في تذوقكِ يا لذيذة!

قالت وهي تبتسم بدلالٍ: وهل ستسمح لهم؟

- بل يطيب لي احتكار هذا الجمال، هذا النملُ وهذه القَماري التي تتغنى من فوقنا على الأغصان العالية وهذه الرمال من تحتنا، كلهم سيشهدون على حبنا، فكُوني لي طائر الكناري كلما شقشق أطربَ وجداني.
- ثم إسترسل **قائلاً**: يا "نوارتي" لدي حلقة ذهبية صغيرة تُنازعني رغبةً في إحتضان إحدى أصابعك الجميلة.
- ماذا؟
- إن شئتِ يا جميلتي ارتديتُ العمامةَ وحملتكِ من بيتكِ على فرسٍ أبيضٍ جميل.
- لا أفهمك!
- قولي رضيتُ بكَ فارساً لأحلامي الوردية.
- تبسمتْ بخجل ثم: رضيتُ بكَ فارساً لأحلامي الوردية.

ثم خاضا حديثاً طويلاً عن الأدب والشعر، الفن والغناء، موسيقى النقارة والأهازيج، الرقص وتمايل أفرع البان، وتحدثا عن السودان، تحدثا كثيراً عن دارفور، ثم تحدثا عن آيات الجمال وسورة الرحمن.

بالنسبة "لنبيل" فإنّ العودة إلى نيالا تعني العودة إلى العمل التطوعي والخيري، والعمل على تحسين الوضع في المدينة إلى الأفضل والأفضل.

بعد مرور أشهر على إغلاق الجامعة، شرقي المدينة وعلى الجانب الأيسر من شارع المطار وعند الأرض الواسعة والمسطحة أسفل جبل نيالا، يتمُ بناء مبنى من طابقين، عبارة عن مستشفى لذوي العلل النفسية والمُعاقين، حصلت فكرةُ "نبيل" على الدعم المالي الكافي من شركائه رجال الأعمال والخيريين المهتمين بتحسين الوضع في مدينة نيالا، ولكنها كأي فكرة ناجحة يجب أن تتعرض لبعض الانتقاد من القريب قبل البعيد.

- مَالَكَ بأمورِ المجانين؟! تسأل الأم ابنها "نبيل".
- لَيسُوا مجانين يا أمي، بل هم أشخاصٌ بسيطون، طموحاتهم عالية، ارتطمت بسقف الواقع المرير لهذا البلد المُهَان والمُهِين، لم تتقبل عقولهم صدمة القَدَر المسطور؛ فهربت من غَياهِب الواقع المُعاش إلى نور الأمنيات، واعتمدت النَسيان أسلوباً لراحة البال والضمير.
- تقصد أن جنونهم ليس بسبب جرعة مخدرات زائدة!
- بلى، بعضهم كذلك.. ابتسمَ ثم **قال**: وبعضهم بسبب العشق.

بعد شهرين من التجهيزات، اكتمل المبنى وتم الإفتتاح بحضور الدكتور "فؤاد المغيرة" أخصائي الأمراض النفسية والعصبية، والذي تم تنصيبه مديراً للمستشفى، وحضور "نبيل فريندو" الذي تم تنصيبه مشرفاً عاماً بإعتباره حلقة الوصل بين المستشفى والمستثمرين، وحضور كامل الطاقم العامل، كما حضر الشركاء و وفدٌ من الممثلين الحكوميين الذين سيضمنون الدعم المالي من وزارة الصحة، إضافة لحضور جماعة من الإعلاميين؛ لتوثيق هذا العمل الجديد (خاصة وأن دارفور بل السودان كدولةٍ فهو يفتقرُ لهذا النوع من المراكز التي تهتم بطبقةٍ اعتمدتْ العيش على جنبات الطريق والأكل من بقايا الطعام وسط القمامة والشرب من مستنقعات المياه المُطحلبة.

المرضُ هو رفيقهم والموتُ أمنيتهم، شُعورهم الكثة والمُجعدة، أيديهم وأرجلهم الخشنة الجافة، يرتدون جوالات السكر المُسْتَهلكة والممزقة؛ لتمنع عنهم البرد والمطر، أما في الصيف فيمشون عراةً كأنهم مبعوثون بيوم البعث، تبحث جلودهم عن ظلٍ ظليل، أصواتهم عالية وهم يتحدثون إلى أنفسهم، لكن لا يستمع إليها غير الأطفال؛ فالأصوات الصادقة تتعارف والقلوب الطيبة تتآلف، أولئك هم وتلك صفاتهم، فأينما وجدتُمُوهم أحضروهم إلينا).. "ذلك ما صرح به نبيل فريندو للإعلام".

تُواصلُ الأيامُ مسيرها، يزداد معها عدد المجانين الذين يتم إحضارهم إلى المستشفى كل يوم، ومع انقضاء الشهر الأول صار المبنى يحتوي على سبعين مجنوناً، تختلف أسباب جنونهم، فبعضهم فقدوا عقولهم عندما كانوا في الجيش وبسبب رؤيتهم لمناظر الجثث البشرية لأصدقائهم المقربين لم يتحملوا الأمر ففقدوا عقولهم، وبعضهم بسبب جرعات زائدة من المخدرات، وبعضهم قد تَلَبَسَهم الجن، والكثيرون منهم فقدوا عقولهم بسبب خيانة العشيقات، وغيرها..

من بين كل المجانين، كان هناك المجنون الغريب ليس كمثل البقية فهو معدوم الكلام، لا يتحدث إلا نادراً، يُحب أن يصعد سطح المبنى، يجلس عند الزاوية أعلى السور، يدلي ساقيه إلى الخارج، ثم يَشْخَصُ ببصره بعيداً نحو السماء، يكرر ذلك كل يوم، صمته الغريب أثار فضول "نبيل" ليسأل عنه، ذهب "نبيل" وسأل عن مكان سكنه قبل أن يأتي المستشفى، أخبرته مسؤولة الاستقبال أنه مُسَجَلٌ عندها أنه كان يقيم بحي "خرطوم بالليل"، ذهب "نبيل" وسأل عنه سكان الحي لعله يستطيع أن يعرف قصته، فوجدَ مجموعةً من الشباب يجلسون تحت ظل شجرة الفايكس في أحد شوارع الحي، سألهم عنه فقالوا: أنه ليس قوياً مثلنا ليتحمل رؤية أحلامه تتحطم أمام عينيه في بلدٍ يأخذ ولا يُعطي، أنه لم يتحمل واقع السودان.

عفواً لا توجد دولة بهذا الاسم.."علّق بذلك صديقهم المستلقي على الأرض ومُتَوسِداً فردة حذائِه".

ثم حاد بنظره نحو السماء، نظر نظرةً تحكي كل أوجاع الفقد للأحلام والأماني الضائعة، كانت الصفعة التي صفعه إياها هذا البلد بعد تخرجه ليتنازل عن أحلامه تَفُوق كل الصفعات التي صفعه إياها المدرسون في المدرسة ليصنع ويتمسك بذات الأحلام.

وقالت نسوةٌ، هُن جاراته في الحي: تلبّسه جنٌ صامتٌ عندما ذهب وتَبوّلَ في حفرةٍ يسكنها الجن.

أما الأطفال فقالوا: أنه وُلِدَ من غير لسان لذلك لا يستطيع الكلام.

أما أهل بيته فكذّبوا كل ما قاله الشباب، النسوة والأطفال، وقالت الأم أن أسرتهم قد ارتحلت إلى هذا الحي قبل عام فقط فأتّى لسكان الحي بمعرفة ماضي الأسرة، وأن الحقيقة هي أنه عندما كان "خالد" – المجنون – في الجامعة، أُغرم بفتاة لثلاث سنوات، ثم في أحد الأيام كان يجلس مع صديق له من خارج الجامعة، كانا يتحدثان عن الفتيات، ثم بدأ صديقه يخبره عن آخر مرة مارس فيها الجنس، أخبره أنه مارس الجنس قبل يومين فقط، ثم أخرج هاتفه وأراه صورة الفتاة التي مارس معها الجنس عاريةً.

صمتت الأم وعيناها دامعة، ثم قالت أتدري من كانت الفتاة؟

قال "نبيل" مُستفهماً: من كانت؟

كانت حبيبة "خالد"، ذلك ما أخبرنا به ذاتُ صديقه عندما جاء متأسفاً في الصباح التالي.

كانت حبيبته تعشقه علناً وتبيع نفسها سراً، عاد "خالد" تلك الليلة مذبوحاً بسكين الغدر الحادة، أغلق الغرفة على نفسه وبدأ يبكي ويئن، ثم في الصباح كان في باحة المنزل غاطساً داخل برميل المياه، رأسه فوق سطح الماء، يبدو كأنه مبتسم وغير مبتسم، شاخصاً بعينيه المتورمتين نحو السماء ويردد: "الشمسُ هي الأنثى التي لا تخون، وهذان العصفوران على غصن شجرة الجوافة، قصة عشقهما أصدقُ من ألف قصة عشقٍ بشرية".

صار ابني يمتنع عن مجالسة الناس والحديث، لقد فقد عقله منذ ذلك اليوم.

•••

في أمسية يومٍ السبت الجميل، يجلس "نبيل" مع أسرته في باحة المنزل فوق زرع من النجيل تحيطهم أزهار جميلة بألوان مختلفة، كل زهرة مزروعة داخل أصيصٍ منفرد، يشربون شاي المساء بعد تناول وجبة العشاء، يستمعون لأخبار اليوم بصوت منخفض من المذياع على الأرض قرب رِجل السرير الذي يستلقي عليه أبوه؛ التلفاز غيرُ متاح لانقطاع التيار الكهربائي، فالكُهرباء في المدينة مجدولة بنظام "يوم بعد يوم"، أمه جالسة على البَنبَر[٨] تمشط ضفائر أخته "معزة" الجالسة على السجادة قرب البنبر وممددة ساقيها.

أبي، أمي، لقد قررت أن أتزوج، "قال نبيل ذلك بغتةً".

ضحك الجميع وكأنه ألقى عليهم دعابة جديدة ساخرة.

قال الأب: هل أنت قادر على تحمل هكذا مسؤولية؟

الزواج يا ابني ليس بتلك السهولة التي يتوقعها الشباب.

قلت: أنت خير من يعرفني يا أبي، فأنا لا أمضي بطريق مالم أكن قد تجهزت له جيداً.

هو الليلة مالو؟ "تسأل معزة باستغراب ".

لم تُجبها أُمُها، بل تركت خصلات الشعر لما أحست الجدية في حديث "نبيل".

ثم قالت: من العروس؟ هل نعرفها؟

---

[٨] **- البَنبَر: مقعد صغير لا يتجاوز طوله ٥٠ سنتميتراً...**

قلت: فتاة تعرفتُ عليها في الجامعة، تُقيم في مدينة نيالا أيضاً.

لم تفرح الأم بهذه الإجابة، فقد كانت تتمنى أن تزوجه بنت خالته "فاطمة" التي كان يلعب معها لعبة المنزل (بُيُوتْ، بُيُوتْ) في الصغر، حيث كان يؤدي هو دور الأب و البنت تؤدي دور الأم والمجسمات الطينية التي صنعاها بأيديهما الرقيقة هي الأولاد، طعامهما من أوراق الأشجار وحشائش الخريف وبُدرة الطُوب المسحوق، سيارتهما تتكون من مِقود فقط – هو في الأصل إطار دراجة قديم – والإطارات عبارة عن أرجلهما البريئة أما باقي الأجزاء فهي مخفية أو مرسومة في مُخيّلتِيهما، يحمل هو مِقودَه بين يديه وهي تمسكُ بقميصه من الخلف، ثم بووووم، بووووم، ينطلق بها في فَلَوَات مدينتهما الواسعة للتنزُه أوالتسوق.

أما والده اكتفى بقوله: على بركة الله.

•••

مضى أسبوع، خرجتُ وأبي من المنزل عند الساعة الخامسة مساءً، نقصدُ منزل "نوارة" بحي تِكْسَاسْ بعد أن حددت لنا موعداً مع والدها؛ لنطلبها للزواج، وصلنا المنزل بعد ربع ساعة، ركنتُ السيارة تحت ظل شجرة الفايكس القائمة أمام الباب الكبير، أما شجرة الفايكس الأخرى أمام الباب الصغير تجلس تحتها فتاة صغيرة، أمامها منضدة صغيرة، تَضَعُ عليها أكياس صغيرة تحتوي على (فُول مُدَمَسْ، تَسَالِي، ويكة، صَلْصَلْ، دَكْوة ولوبيا)، بين الباب الكبير والصغير توجد غرفة دورة المياه، طرقتُ الباب طرقتين مُهذبتين، لم تمضِ لحظات حتى فتح الباب شابٌ عشريني العمر يرتدي عَرَّاقِي خفيف وشفاف، يُظهِر جسده النحيل من تحته، طلب منا الدخول، فدخلنا وجلسنا تحت ظل الرَاكوبة المبنية عند الركن الشرقي الجنوبي للمنزل، كان المنزل يحتوي على خمس غرف وثلاث رواكيب -راكوبة في الجزء الخاص بالرجال واثنتان في الجزء المخصص للنساء- جاء الأب بعد دقائق، ألقى علينا التحية ثم جلس، كان صامتاً ومُرِيباً نوعاً ما، بدا في الخمسين من العمر، له شارب كبير يغطي شفته العلوية، عيناه ناعستان.

بدأ أبي قائلاً: أنا الأستاذ "عبد العزيز" وهذا ابني...، تحدث أبي بإطنابٍ عن سِيرتنا، ثم قال لابُد أنك تعلم سبب مجيئنا، هزَّ والدُ "نوارة" رأسه إيجاباً.

قال أبي: بناءً عليه قد جئتُ أطلبُ ابنتك للزواج من...!

لم يكمل أبي جملته حتى باغته والد "نوارة" بالرفض **قائلاً**: أنا أرفض، ثم أضاف "لا نزوج بناتنا لمن هم من خارج القبيلة".

كنت ألزم الصمت بينما أحسستُ بضيقٍ في صدري وثقلٍ في رأسي كأن الدم ما عاد يصله، هل هو جاد؟ وهل كانت "نوارة" على علم بقراره؟

وفي أي عصرٍ نعيش حتى يُمنع الزواج لسبب قَبَلِي؟ خرجتُ وأبي من منزل "نوارة" بوجهين حزينين، قلبي يتساءل، هل انتهت قصة عشقنا؟

إختبأت الشمس خلف الغيوم، كأنها استحت من أن تطَّلِعَ على حُزننا، ثم أمطرت السماء كأن أهلها حزينون على حُزننا، قدتُ السيارةَ عائداً إلى المنزل مع أبي الذي ظل صامتاً طول الطريق، فأحسست بالذنبِ وكأني أحرجته بهذا الموقف.

قلت: أعذرني يا أبي، لم أكن أعلم أن هكذا ستكون ردة فعله.

قال: لا عليك يا ابني، أنت لم تُخطئ.

كنت أتحسس حجم الحزن الذي في صوته، بينما كان يحاول أن يُخفي الأمر فيردُ عليَّ بإختصار.

•••

نوارة: عندما دخل علينا أبي، كنتُ وأمي في راكوبة المطبخ، كنت جالسة على الأرض ويديَّ على رُكبَتَي أمي الجالسة على البَنبَر وممسكة بإصبعيها – السبابة والإبهام – إبرةً ساخنةً أخرجتها للتو من حافة أنفي بعد أن ثقبت ثُقباً بحجم رأس الإبرة؛ لأُدخِل فيه الزُمام، جلس أبي على السرير المقابل، **نظر إليَّ بحدةٍ ثم قال**: "نوارة"، عندما قلتِ أن لديك عريس، ظننت أنه من أبناء القبيلة، أو على الأقل من أبناء عُمومتنا، لكني تفاجأت به وبوالده عندما رأيت أنهما من إحدى القبائل الزُنجية، لذلك لستُ موافقاً على هذا الزواج.

- لكن يا أبي "نبيل" شخص جيد وطموح.
- لا أعرف ما تقولينه، لكني لن أزوجك إياه.
- لكنه يُحبني وأنا أحبه يا أبي.
- سجمك، مجنونة انتي يا بنت! احتشمي واحترمي والدك، "قالت أمي ذلك" ثم أضافت: ستتزوجين من "حِمّيدة" ابن خالتك الذي طلبك للزواج منذ عامين ولكنك رفضتِ بحجة أنك صغيرة.
- لكن يا أمي أنا أحب "نبيل".

كادت أمي أن تصفعني على خدي لولا أن قاطعها أبي.

قائلاً: خلاص الموضوع ده منتهي، مافي عرس من خارج القبيلة.

كان أمراً صادماً بالنسبة لي، هل تنتهي قصة عشقنا بهذه السهولة؟ وهل سأتزوج من شخص لا أرغبه؟ فمازلت أذكر والدّي وهما ينصحانني عندما دخلتُ المرحلة الثانوية بأن أُحسن إختيار رفقاء جلوسي، فكيف يطلبان مني الآن أن أعيش حياتي كاملة مع شخص لا أراه مناسباً لي ولا أحبه حتى!

نهضتُ من عند والديَّ والدموعُ كالسيلِ على خدَّي، دخلتُ غرفتي، لجأتُ لسريري، إحتضنتُ وسادتي، ثم بكيتُ حتى جفّت عيناي، لم أتصل "بنبيل" تلك الليلة، وهو كذلك لم يفعل، فضّلنا الصمتَ.

في الصباح التالي، جهزت الشاي، أبي جالسٌ على السرير، أمامه منضدة صغيرة، أحضرتُ إليه الشاي ووضعته على المنضدة ثم عدتُ إلى المطبخ دون أن ألقي عليه التحية أو أنظر إلى عينيه كعادة كل صباح.

ظللتُ أسبوعاً على هذا الحال، كنت أظن أن إضرابي عن الحديث معهم أو إظهاري للوجه العابس سيُجدي نفعاً، حتى نجحت خُطتي فعلاً، ففي مساء يوم الأحد كنت في غرفتي مستلقية على سريري شاردة بذهني في لحظات العشق مع "نبيل" طَرَقَ أبي الباب ثم دخل، فعدّلتُ من وضعي وجلستُ في منتصف السرير، جاء وجلس قربي، نظرَ إليّ بحنان، وضع يده على رأسي ثم رفعها بسرعة **وقال مازحاً**: ما كل هذا الزيت؟

فتبسمتُ بزعل.. ثم أضاف أبي: هل أميرتي الصغيرة مازالت منزعجة مني؟

فَضّلتُ الصمت ولم أُجب.. ثم أردف **قائلاً**: أنا موافق على زواجه منكِ طالما أن الأمر يُسعدكِ.

ابتسمتُ بغباءٍ ثم ارتميت إلى حضنه فصار الزيت الذي برأسي كله في جلابيته البيضاء، كنت أعلم أن لدي معزة خاصة في قلبه فأنا ابنته الوحيدة.

حينها دخلت أمي فجأة وأنا بحضن والدي، فسألت متعجبة عن سبب الحضن وكأنها تغار، فأجبتُها أن أبي قد وافق على زواجي من "نبيل"، لم تبدُ علامات الفرح في وجه أمي بل عَبستْت ثم سألت والدي: لماذا غيرتَ رأيكَ يا حاج؟

لن أغصِبها على الزواج من شخصٍ لا تريده.

لستُ موافقة .. قالت أمي ذلك ثم خرجت غاضبة من الغرفة.

ثم في أمسية اليوم التالي ونحن حول مائدة الطعام نتناول وجبة العشاء سمعنا صوت إحتكاك عنيف لإطارات سيارةٍ بالأرض ناتجاً عن كبح للفرامل بعد سرعة شديدة، توقفت عربة أمام الباب، وبعد ثواني قليلة سمعنا صوت الباب يُطرق، نهض أخي "مَسَار" من المائدة، غسل يديه بسرعة ونشفهما بطرف جلابيته العَراقي ثم أسرع وفتح الباب، يقف "حِمّيدةُ" وراء الباب بوجهٍ جاد، ألقى التحية على أخي ثم دخل، إقترب أكثر فألقى علينا التحية، تغيّرت ملامحه عن آخر مرة رأيته فيها أصبح ضخم الجسد وطويل، شعره مفلفل كأنه قادم من كهف، عيناه محمرة على عادته، طلب منه أبي أن يشاركنا الطعام لكنه تحجج بالشبع ثم أخذ كُرسياً وجلس بالقرب منا حتى فرغنا من الأكل.

أتيت أطلب يد "نوارة" من جديد، قال ذلك "حِميدة" بعد أخذ غصة من الشاي الذي قدمته لهم، ران علينا صمت قصير فتذكرت جملته التي قالها لي عندما رفضتُ الزواج منه قبل عامين "سأنتظرك وسأحظى بك في النهاية"، كسر أبي الصمت عندما ردّ عليه: أنت ابننا مِنّا وفينا، رجلٌ ومسؤول لكن "نوارة" لها عريس آخر...

- أتقبل أن تزوجها لمن هو من خارج القبيلة؟
- أقبلُ مادام في الأمر سعادتها.
- لكني أُريدها واتمناها منذ زمن وقد سابقت بطلب زواجها.
- ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

نهض "حِميدة" فجأة نظر إليَّ ثم رمق أبي بنظرةٍ فيها تحدٍ **وقال**: إلا أنا أدركُ كل ما أتمناه، ثم خرج غاضباً.

بعد أن خرج "حِميدة" لم يشغل بالي سوى سؤال واحد، كيف عرف بأمر "نبيل"؟

لم أجد جواباً سوى أن أمي هي التي أخبرته نظراً لتمسُكها الشديد بفكرة أن تزوجني له، فتجاوزت الأمر لأني لا أنوي أن أخوض معها نقاشاً حاداً.

•••

في صباحٍ هادئٍ ومُشرق، نسيم السادسة صباحاً يغازل النفسَ بحنانٍ "أنتِ الحبُ كما وجب، وأنتِ القلبَ كما نبض".

قال ذلك "نبيلُ" "لنوارة" عبر الهاتف، تآنسا بلغة الحب فَرِحين بموافقة والدها على زواجهما.

عاد "نبيل" إلى المستشفى بعد غياب دام لأيامٍ، كان متقوقعاً في قوقعة حزنه الذي صار يتلاشى، أول ما فعله بعد عودته أن ذهبَ ليطمئن على "خالد" – المجنون – صعد السطح فلم يجده في مكانه المعتاد فعاد إلى غرفته في الطابق الثاني، طُبِعَ الرقم ٢٥ على باب الغرفة، هي الغرفة التي يقيم بها "خالد" بعد أن تم فصله من العنبر العام لكونه هادئ لا يُحب الإزعاج، كما يتم فصل بعض المرضى بسبب عنفهم الشديد.

طرق "نبيل" الباب بهدوء ثم دلف إلى الداخل، كان "خالد" واقفاً على قدميه وسانداً ظهره على الحائط واضعاً كِلتا يديه داخل جَيبَي بنطاله.

حياه "نبيل" لكنه لم يَرُد التحية، وقف "نبيل" بجانبه ثم **سأله**:

- ما الذي تتمناه؟
- "إني لأتمنى أن أصعد أعلى قمة لأرى كم في المدينة من قصة عشق في واقعها عبارة عن كذبٍ وتمثيل"علق خالد بذلك والحزن يملأ صوته".
- ماذا كان اسمها؟
- قد صَعُبَ على والديها أن يحجزاها بين أحرف اسم واحدٍ فأسموها "أسماء".
- هل كنت تغار عليها؟ يسألُ "نبيل".

ران عليهما صمت طويل بعد السؤال، علم "نبيل" أن "خالد" لن يجيب، فاتجه نحو الباب مقرراً الخروج..

- أجل، أغار عليها.

ترك "نبيل" قبضة الباب لما سمعه يُجيب بذلك، إلتفت نحوه، فكان ينظرُ عبر النافذة كأنه يرى حبيبته الخائنة بين السحب، **ثم إسترسل قائلاً**:

- أغارُ عليها من أبيها وأخيها وخليلتها التي تُناجيها.
- أغارُ عليها من نسمة الهواءِ التي تعتريها.
- أغارُ عليها من كُحلٍ يغازل عينيها ومرطبٍ يحتضنُ وجنتيها.
- أغارُ عليها من خمارٍ يداعبُ خصلتيها ومسواكٍ يلاطف سِنّيها.
- هي الحياةُ بها أنعم وهي النعيم به أحيا.
- هي القمر المضيئ وأنا لدلالها طفلٌ رضيع.
- أناجي بها ربي عند كل سجود عَلّها ببقائها معي عليَّ تجودُ.
- فهل عليها أغار أم أدعها للكون موضع الأنظار؟

صمتَ ولم ينتظر جواباً من "نبيل"، بل تحرك نحو باب الغرفة ليخرج لولا أن إستوقفه سؤال "نبيل": لما هذا الصمت إذاً وأنت تجيد نظم الشعر؟

لم يرد على السؤال بل اكتفى بابتسامةٍ خفيفة ثم خرج وترك "نبيل" وحيداً، اتجه نحو السطح وجلس عند زاويته المفضلة.

لم يقضِ "نبيل" وقتاَ طويلاً بالمستشفى بل خرج بعد أن صلى الظهر، ذهب إلى معرض الكتاب المقام في مقهى "جوكس" والذي دعاه إليه صديقه "رِينق" القائم بأمر المعرض، قضيا وقتاً طويلاً بين صفحات الكتب، تَنقَّلا بين الماضي والحاضر، تناولا الموضوعات الدسمة التي قدمتها الكتب في مختلف المجالات.

عاد إلى المنزل والشمسُ اصفرّت حزناً على الرحيل، لم يقضِ ساعة في المنزل حتى اتصلت به مسؤولة الاستقبال بالمستشفى لتخبره أن "خالد" – المجنون – مفقود منذ ثلاث ساعات ولا أحد يعلم بمكان تواجده ثم أضافت أنها تعتقد أنه مصاب بجرح، لم يسألها "نبيل" عن سبب إعتقادها بل أقفل الخط ثم غير ثيابه بسرعة وذهب إلى المستشفى بسيارة والده، دلف عبر البوابة واتجه إلى مسؤولة الاستقبال مستفسراً عن الأمر، فأخبرته أنهم فقدوا "خالد" عندما بدأ الممرضون بإجراء التمام اليومي، كان مفقوداً بينما البقية موجودون بغرفهم، ثم أضافت إن هناك شيئاً غريباً سيجده حالماً يدخل إلى غرفة "خالد"، فاتجه "نبيل" إلى الطابق العُلوي حيث غرفة "خالد"، دَلف إلى الغرفة وتفاجأ بالمنظر، كلماتٌ مخطوطة باللون الأحمر على حائط الغرفة الأبيض كأنها معلقة من معلقات العصر الجاهلي، إقترب أكثر فرأى بُقعاً حمراء اللون على الأرض، تفحّصها جيداً فأدرك أن "خالد" خَطّ هذه الكلمات بدمائه، كان قد كتب.

"أقولها لكم ولا أرمي بها تبريرا، خرجتُ إليكم من عَالَمٍ لا يشبهكُم وقد كنت منكم وفيكم إلا أني لستُ مِثلكم، عالمي عن عالمكم قد إختلف، نحنُ المنبوذين والمطرودين من عالمكم بسبب صمتنا عن لغو حديثكم، وبسبب عشقنا للإبتعادِ عن ضجيجكم الذي انتهك راحتنا، وإنها رسالة أشباهي من قبور الصامتين إليكم يا معشر المغتصبين، أجل مغتصبون فقد اغتصبتم خُلوتنا إلى أنفسنا وأزعجتم مسامعنا ونحن صامتون عن الرد عليكم؛ ليس خوفاً وإنما هذا أسلوبنا الذي يجعلنا ضِعافاً في أعينكم ولا نُبالي برأيكم، إنما يطلب منكم قومي أن تمسكوا ألسنتكم عنا فنحن أشخاص حتى ضجيج صمتنا يزعجنا، أجل لصمتنا ضجيج وهو كثرة التفكير في كيفية إسعاد أنفسنا بصمتنا، وسواسُ الشيطان إلينا هو أعظم ضجيج.

أما أنا سأسعى لأجد تلك الأرض البعيدة عنكم بأميال وسيراً لمدة أيام؛ لأكونَ مع نفسي داخل منزلٍ خشبي حوله أزهارٌ وأشجار، أزهارٌ بلا حشرات تزعجني بطنينِ أجنحتها، فقط فراشات والتي لم نسمع لها صوتاً من قبل، وسأنتظرُ هطول الأمطارِ بلا رعد، سأعيشُ وحيداً بلا والدٍ ولا ولد فقط سأناجي ربي أن يأخذني إليه قبلَ أن أشيب؛ فقد سئمتُ الحياة، سأُسعدُ بمفارقة أُناسٍ جُلّ سعادتهم في كثرة الكلام والسعي وراء القيل ومَن القال، يوماً ما سأبني عالمي الصامت وسيكون التأمل هو أنيسي الوحيد، سيرتاحُ سمعي وحينها فقط أكون قد وجدتُ نفسي لنفسي..."

قرأ "نبيل" تلك الكلمات بعمقٍ فعلم أنها إجابة من "خالد" على سؤاله له عن سبب صمته عندما سأله في الصباح، استمرت عمليات البحث في كل الأماكن التي من المتوقع أن يكون قد ذهب إليها لكن باءت بالفشل فكل الأماكن كانت خالية من "خالد".. وعندما عاد "نبيل" إلى غرفة "خالد" يبحث عن خيط يدلهم عليه ولو كان رفيعاً، وقف أمام الحائط الذي يحتوي على تلك الكلمات، قرأها مراراً وتكراراً لكنه لم يحصل منها على شيء فالتفتَ عن الرسالة وهو يقلب نظره في أرجاء الغرفة، أسندَ ظهره على الحائط المقابل فتذكر وقفته مع "خالد" في الصباح في نفس المكان وقد أسندا ظهريهما على ذات الحائط، فتسللت ذكرى من بين جموع الذكريات وأصبحت كأنها أمام عينيه وهو يرى "خالد" ويسمع صوته وهو يقول مجيباً له على سؤاله عن أمنيته حيث **قال**:

"إني لأتمنى أن أصعد أعلى قمة لأرى كم في المدينة من قصة عشق في واقعها عبارة عن كذبٍ وتمثيل.. "

بدأ "نبيل" يحلل مقولته هذه، أين يمكن أن تكون أعلى قمة في المدينة يمكنه الصعود عليها؟

وقف قرب النافذة وعقله يحلل حتى قطع تفكيره جبل نيالا العملاق الذي ظهر أمام عينيه شامخاً بقمته العالية..

أيمكن أن يكون هناك؟!.. "يسأل نفسه"

خرج "نبيل" من المستشفى وحيداً بعد أن أنارَ مصباح هاتفه رغم سطوع القمر فقد كان يخشى على نفسه من الثعابين والعقارب التي تستوطن في ذلك المكان الموحش فقد كان شائعاً في المدينة قصة الثعبان العملاق الذي طرد عساكر الجيش من إرتكازهم على سطح الجبل وبعض الأقوال تنصُ على أنه جان وليس ثعبان، بدأ يصعد الجبل مسرعاً ثم شيئاً فشيئاً تباطأت سرعته لفتور قدميه وارتفاع أنفاسه، يمشى خطوات معدودة ثم يجلس على إحدى الحجارة ليستجمع قواه ولتتزن أنفاسه، أمضى عشر دقائق في رحلته نحو سطح الجبل، جسده مُبتل لتساقط رزاز خفيف، على قمة الجبل شجرة طولها لا يتجاوز المترين يجلس قربها "خالد" مُتجهاً نحو الجنوب الغربي مُهكِراً قدميه وعيناه تتلذذان بجمال القمر، رآه "نبيل" فاطمأن ثم اقترب منه أكثر لكن ببطء وهدوء حتى لا ينتبه إليه "خالد".. استرق "نبيل" السمع فسمعه قد بدأ يدندن بعض الكلمات:

"ها أنا ذا أسرقُ من الليل لحظة؛ أختلي بقلبي، أطلبُ من الهواءِ نسمةً؛ أُحَمّلها مشاعري وكلماتي، أُشاهِدُ القمر وهو يستحي خلف الغيومِ تارةً وتارة يكشف ضوءه ليغازل عميق نفسي، أصواتُ صرايرِ الليلِ وهفيفُ الأغصان، نقيق الضفادع وتَبَوّمُ بومةٍ عند شجرة التلبدي العملاقة، كأنها جوقة موسيقية متزنةٌ تراقصُ هدوء الليل، بين عاشقٍ ولهان ومشتاقٍ حد الهذيان، تترددُ مفرداتُ اللسان، معشوقتي، يا كَنَارِية الصوتِ وشديدة الجمال، رددي معي همساتُ عاشقٍ ولهان:

- أحبكِ، والحب مَفرَشٌ وغطاء، نسمةٌ وماء، لغة وثناء.
- أحبكِ والحب موعدٌ ولقاء.
- قولي أحبكَ؛ فأرقصُ أنّ الحب ينادي.
- قولي أحبكَ؛ أصرخُ أن الحب مَوطني وبلادي.

أنظري يا أميرة مهجتي، قد بدأت تمطرُ ماءً، أم تَهمِرُ دمعاً، لا أدري؛ لعل الملائكة يَبْكُونَ أن لستِ منهم، أنتِ الزهر وأنت الفراش، أنت رزاز المطر وأنت ألوان الطيف، في جمالكِ لستِ كالشمسِ، لست كالقمر، بل أنت السماء بشمسها وقمرها وما سطع فيها من نجمها.

أبلغيها كلماتي ثم انطلقي لحالكِ يا نسمة الوصل بيننا؛ فالموتى يسمعون ولا يجيبون..." ثم صمتَ وهو يسرح بعيداً.

إختلطت مشاعر "نبيل" بين معجبٍ بهذه الكلمات ومستفهاً بعد قوله "الموتى يسمعون ولا يجيبون". من يقصد بالموتى؟!

اقترب منه "نبيل" من الخلف ثم ربت على كتفه الأيسر **وقال**: السلام على من يجلس وحيداً، لم يتفاجأ "خالد" ولم يرد السلام وكأنه كان يعلم بوجوده خلفه، جلس "نبيل" قربه على أمشاط قدميه وأصابع كلتا يديه متشابكة أمامه، ما أجمل القمر وهو نصفٌ، قال ذلك "نبيل" **ثم أردف سؤالاً**: يا ترى أين النصف الآخر؟

أراد بذلك أن يحصل على إجابة من "خالد" صاحب الإجابات الغريبة.

ليلة إنشقاقه، نزل النصف وتجسّدَ على هيئة إنسانة فصار "أسماءُ"؛ بذلك أجابه "خالد".

أجابه بصورة مباشرة هذه المرة على غير عادته، مما دفع "نبيل" ليسأله سؤال آخر، ماذا تقصد بقولك الموتى يسمعون ولا يجيبون؟

"أسماء" قد ماتت .. أجاب "خالد" بذلك بعد أن ازدرد ريقه.

صار "نبيل" يردد مع نفسه: كيف فاتني هذا الأمر ولم أسأل عنها من قبل.

- كيف ومتى حصل هذا؟

قتلتها بيدي، فالخيانة لا نغفرها بل نَغسِلها بالدماء.

صُدم "نبيل" بهذه الإجابة.. أيتحول المحبُ إلى قاتل؟

ثم نهض "خالد" مُتجهاً إلى المستشفى وتبعه "نبيل" بهدوء، تأخر الوقت فقضى "نبيل" ليلته في إحدى الغرف المخصصة للممرضين.

ثم في صباح اليوم التالي أشرقت الشمس خرج "نبيل" من المستشفى في الثامنة صباحاً بعد أن وردته مكالمة من والده يطلب منه أن يُحضر إليه السيارة لحوجته إليها في قضاء بعض المشاوير. السيارة في ماكنها منذ أن ركنها "نبيل"على الجانب الأيمن من بوابة المستشفى، فتح باب السيارة ليركب عندها سمع صوتاً قادماً من يمينه يقول:

- هاا الجَنا...

كان ذلك صوت "حِميدة"، التفتَ "نبيل" نحوه وردد:

- إنت معاي؟
- هنا في زول غيرك يا الغبي!
- الإساءة لشنو يا زول؟
- رد "حِميدة" وعيناه محمرة: عندي ليك أكثر من الإساءة.

ثم أخرج مسدساً كان يعلقه بحزامه حول صلبه، وَجَه المسدس نحو "نبيل" وقال بفمٍ تفوح منه رائحة الصعود:

- "نوارة" ملكي أنا يا الأمباي، إختفى رجل الأمن عند البوابة في أكثر لحظة كان يجب أن يمارس فيها عمله.
- ملكك كيف يعني؟! رد "نبيل" بذلك بعد أن أجفل وشعر بعرق يندي جبينه لخوفه من المسدس المشار إليه بين عينيه.
- كده بس، المهم ما أشوفك معاها وأنسى فكرة زواجك منها لأني حتزوجها غصباً عنك وعن أبوها.
- قال "نبيل": "نوارة" بتحبني وأنا بحبها..

صار الغضب يصول ويجول في ملامح "حِميدة"، تحسس الزناد بسبابته وكاد أن يضغط عليه ليفجر رأس "نبيل" لولا أنه توقف فجأة، إبتسم إبتسامة خبيثة أنزل بعدها المسدس ووضعه في جُرابه، نظر إلى "نبيل" وقال سأحرق قلبك أولاً، ثم مشى وقطع الطريق إلى الناحية الأخرى، ركب سيارته الكروزر وقادها مبتعداً بعنف.

الساعة الحادية عشر صباحاً، "نبيل" يجلس داخل السيارة خلف المقود وأمه أمام بوابة مدرسة جنوب دارفور النموذجية بنات، ينتظران خروج "معزة" من مركز الإمتحانات فاليوم هو أخر أيام إمتحانات الشهادة السودانية، وعلى عادة الطلبة في يومهم الأخير يثيرون الشغب والفوضى ويعتدون على بعضهم البعض بسبب عداوة قد تنشأ داخل غرفة الإمتحان وذلك ما توعدت به فتاةٌ "لمعزة" بأنها ستضربها وتقتص منها في آخر يومٍ للإمتحانات لأن "معزة" رفضت أن تدعها تنقل من ورقتها داخل الإمتحان، وبعضهم يعتدي على المعلمين ليأخذوا بثأرهم من تراكمات التوبيخ والجَلد الذي يمارسه عليهم المعلمون طول العام، لذلك حضر "نبيل" وأمه ليضمنا ألاّ تتعرض "معزة" لمشاكل، قُرعَ الجرسُ فخرج الطلبة منتشرين في وسطهم "معزة" كانت تبتسم فرحاً بالامتحان الذي كان سهلاً فبدت كزهرةٍ شرعت بالتفتُح بعد أن داعَب مَيسمها شعاع تسلل من خلف الغيوم في صباحٍ خريفي ناسم، ثم إتسعت إبتسامتُها لما رأت أمها عند البوابة تنتظرها بحب ترتدي "توب" بنفسج فاتح مزركش بشئ من الأصفر الممزوج بقليل من الأبيض والأخضر الجميل، إحتضنتها أمها بحبٍ وبذلك ضمنت سلامة ابنتها، إنتظرتها لتودع صديقاتها، بَكَينْ بحُرقةٍ على الفراق، ثم بعد أن فرغنْ من مصافحات الدموع، أمسكت الأم بيد إبنتها وتحركتا بإتجاه "نبيل" الذي أوقف السيارة في الطرف المقابل، يفصل بينهم طريق مسفلت مزدحم بحركة السيارات، بمسكة اليد ذاتها وبخطوات حذرة كانت الأم مع إبنتها في منتصف الطريق المسفلت و"نبيل" ينظر إليهما، وفي رمشة عين إختفت الأم وابنتها، سَقَطَتَا على بُعد أمتار بعد أن صدمتهما سيارة لاندكروزر لا تحمل لوحة ثم إختفت بسرعة.

كان "نبيل" جامداً في مكانه من هول الموقف، يداه صارتا كقطعتي ثلج وعيناه تظران إلى أمه ذات الساق الناقصة وأخته التي صارت جسداً بلا رأس، فتح باب السيارة حاول الوقوف فسقط ، فرِجلاه لا تقويا على حمله، وصل إلى الجثتين وبنطاله مثقوب عند موضع الركبتين فقد حَبا فوق الأسفلت حَبواً إليهما.

وعندما وصل لم تكونا سوى جثتين هامدتين وبريئتين.

- ما هو رقم اللوحة؟ .."الشرطة تسأل بعد ربع ساعة من وقوع الحادث"
- السيارة بلا لوحة.. "أجاب الموجودين في لحظة الحادث" وأضافوا أن زجاج السيارة كان مظللاً.

في المستشفى قسم الحوادث أفاق "نبيل" من الصدمة، يجلس قربه والده الذي بدا شاحباً حزيناً، عَزّيا بعضهما بصوتين يملأهما الحزن والعجز، بكيا على الحزن والوحدة المُلازِمتين لهما منذ اليوم...

ثم في المقابر بعد إنهاء مراسم الدفن، رنّ هاتف "نبيل"، رقم مجهول الهوية يتصل، رد "نبيل" فباغته صوت خشن يقول بإنتصار:

- لقد حطمتُ قلبك، أمازلت تريد "نوارة"، ابتعد عنها وسأُبقي على والدك حياً، ثم أغلق "حِميدة" المكالمة.

إزدادت حُمرة عينيه لحزنه وغضبه الممزوجين، فالأمر ليس حادثاً بل هو اغتيال مُدبر.

•••

بعد أسبوعين من الحادث، في قسم الشرطة تم إغلاق القضية ضد مجهول فقد أنكر "حِميدة" كل التُهم التي قدمها "نبيل" للشرطة وأكّد أنها أدلّة ليست كافية لتثبت عليه التُهمة بالقتل، فخرج منها بدهاءِ ومكر إبليس.

كان "حميدة" ظالماً مُستبداً يتبع لقوات الدعم السريع، وهذه ليست أول مرة يقتل فيها فقد كان جنجويدياً يدمن البنقو، يتلذذ بالإغتصاب ويمرحُ بمنظر قتلاه الضعفاء من أهل القرى والمزارعين الذين يذبحهم مع بعض رفاقه ليحصل على محاصيلهم الزراعية، دمه مخلوطٌ بدماء الأبرياء الذي يَلعقه من سكينه بعد ذبحهم.

مرت ثلاثة أشهر على إختفاء "حِميدة" فقد كان مختبئاً في قريته - الفَرِيق- شمالي غرب الولاية قرب حدودها مع ولاية وسط دارفور، وبخطة محكمة لإخراجه من جُحره، اتصلت به "نوارة" وطلبت منه لقاءه وحددت معه مكان اللقاء الذي كان بمنزله الكائن بحي الكنغو وسط مدينة نيالا على أن يتحدثا بخصوص طلبه للزواج منها، تلك خطتها مع "نبيل" الذي أكد لها أنه سينصب له كميناً مع رجال الشرطة.

بعد يومين عاد "حميدة" إلى المدينة، اتصل "بنوارة" وأخبرها أنه ينتظرها في منزله، وإن كان "حميدة" عاشقاً متهوراً إلا أنه مجرمٌ خبيث فقد وضع مُخبراً عند بداية الشارع أخبره أن "نوارة" تقترب الآن وحدها، وبذلك إطمأن.

فتح "حميدة" الباب لها بعد أن طرقته بقلقٍ، دخلت وطلبت منه أن يُبقِي الباب مفتوحاً بحجة أنهما وحدهما في المنزل، جلسا تحت ظل الشجرة الوحيدة وسط المنزل بعد أن قدّم لها الماء بكوب زجاجي، ثم بدأ يتأملها بعينيه المحمرة ينتظرها أن تحكي، كانت تشابك أصابع يديها من التوتر منتظرةً قدوم "نبيل" وقوات الشرطة، **فبدأ قائلاً**: هل فكرتِ في عرضي؟

وقبل أن تجيب "نوارة" على السؤال، وردته مكالمة من مخبره في ذات اللحظة التي دخل فيها "نبيل" بغتةً عبر الباب المفتوح، فقد أخطأ "حميدة" بوضعه مخبراً واحداً فقط في الشارع الغربي بينما جاء "نبيل" من الناحية الشرقية، ولم يره المخبر إلا وهو على بُعد خطوتين من باب المنزل الذي يقع بين أربعة منازل، منزلين من الشرق ومنزلين من الغرب جميعها من الناحية الشمالية للشارع تفتحُ جنوباً، وقف "حميدة" متفاجئاً، حاول إخراج مسدسه من صلبه لولا أن باغته "نبيل" بلكمة قوية كاد أن يُسقط على إثرها المسدس، لكنه إعتدل واقفاً ومن مسافة تبعُد مترين أعاد تصويب المسدس نحوه، تقف "نوارة" خلف "حميدة" ومسندة ظهرها على ساق الشجرة تشاهد عِراكهما بقلق، زادت حدة توترها لما صوب "حميدة" المسدس تجاه "نبيل"، بحركة خاطفة أخذت الكوب الزجاجي وضربت "حميدة" في مؤخرة رأسه، ضربةً تحطم على إثرها الكوب بعد أن أحدث فتحة في رأسه سالت منها الدماء، وسقط فاقداً للوعي، فبدأت "نوارة" ترتجف خوفاً من أن يكون قد مات، هل ستعتقلني الشرطة؟ " تسأل نوارة".

أجابها "نبيل" أنه لم يخبر الشرطة لأنه تمت تَبرِءت "حِميدة" من قبل، وأيضاً "نبيل" قد أراد إنتقاماً شخصياً، وإن جاءت الشرطة فسيكون هو المُدان، ثم إنحنى وأخذ المسدس من الأرض، صوبه نحو "حميدة" الممد على الأرض فاقداً وعيه "نوارة" تُردد توقف، توقف ماذا ستفعل؟

ترتجف يد "نبيل" حُزناً وغضباً وألماً من مرور ذكرى جثتي أمه وأخته وهو يرى الآن قاتِلهما أمامه، اقتربت منه "نوارة" بحب، أمسكت المسدس من يده؛ فلا تريد لحبيبها أن يصبح قاتلاً، إتجه "نبيل" ليغلق باب المنزل فتفاجأ بالمُخبر الذي ظهر أمامه فجأة كقطٍ بري قفز مجهزاً على فريسته، وقد كان ممسكاً سلاحه بيده، حاول أن يصوب به تجاه "نبيل" الذي صارعه عليه، عندها وفي لمح البصر خرجت طلقة واستقرت بصدر "نوارة" التي كانت تقف على الجانب الأيمن من خلف "نبيل"، دفع "نبيل" المخبر للخلف بقوةٍ فضرب مؤخرة رأسه بركيزة الباب فسقط فاقداً للوعي أيضاً.

تجمهرت أعداد كبيرة من الجيران عند الباب بعد سماعهم صوت الطلقة، وجدوا على الأرض شخصين برأسين داميين، قربهما جثة فتاةٍ جميلة يحتضن رأسها شابٌ يبكي ويردد:

"هُس.. هُس.. حبيبتي نايمة"

اعتقلت الشرطة "نبيل" ومعه "حِميدة" والمخبر، خلف طاولة في وسط غرفةٍ فارغةٍ ومظلمة يجلس "نبيل" ويقابله على ذات الطاولة الضابط المسؤول عن القضية يسأله بإستجواب:

- ماذا كنت تفعل في مكان الجريمة؟
- أحبها..
- هل بينك وبين الضحية عداوة؟
- أحبها..
- هل تهزأ بي أيها المُتهم.. "قال غاضباً".
- هُس.. هُس.. حبيبتي نايمة..

بأمرٍ من القاضي تم تحويل "نبيل" إلى مستشفى الأمراض النفسية والعقلية، أما "حميدة" ومخبره ظل التحقيق معهما مستمراً.

داخل حرم المستشفى، ذات المستشفى التي تطوع للخدمة فيها، في الحديقة الخلفية التي يجلس فيها المرضى يجلس "نبيل" مع "خالد" – المجنون – على أحد المقاعد تحت ظل الشجرة قرب الحائط، لا يجلس معه كطبيب هذه المرة بل كرفيق يعاني ذات المشكلة النَفسِية، يجلسان قرب بعضهما.. صامتين.. غائبين عن الواقع..

تحت ظل الشجرة المقابلة لهما يجلسُ مجموعةٌ من المرضى في وسطهم يجلس المجنون "أَكَمَا" بجسده الضخم وعضلات ذراعيه المُتحجرة وعيناه الغاضبتين، كان يؤشر نحو "نبيل" **ويقول**:

هل تَرون ذلك الشخص؟ هز الجميع رءوسهم إيجاباً.. **أضاف المجنون "أَكَمَا"**:

- إنه جاسوس يتبع للأعداء – الممرضون – صدقوني لقد رأيته من قبل يتحدث إليهم ويرتدي مثل ما يرتدون، لابد أنه يتجسس علينا وسوف ينقل إليهم أسرارنا، يجب أن نقضي عليه الأن.

"أكما" كان عسكرياً في الجيش، شارك في حرب الجنوب، وفي مرة بينما هو ورفاقه العساكر مرتكزون، هجمت عليهم قوات "جون قرنق" الذي كان يقاتل ضد الجيش السوداني، وبعد إشتباك عنيف قُتل كل رفاقه وخرج هو وحيداً بلا عقل.

نهض "أَكَمَا" وبقية المجانين، إتجهوا نحو "نبيل" وبقدر ما قدم لهم من خدمات إنهالوا عليه بالضربِ حتى فرق بينهم الممرضون ورجال الأمن.

•••

النهاية

_مُرين.. مُرين.. مُرين نفر.. مُرين نفر.. ماشي مُرين يا أستاذ؟

في موقف الركشات عند تقاطع السوق الكبير أمام مسجد زالنجي العتيق، سائقي الركشات الجُوكية كل منهم يصرخ محدداً وجهته (الثورة، مُرين، السنتر) من بيهم "بُرعُم" الذي يقف متكئاً على ركشته ذات اللون الأصفر ممسكاً سيجارة بيده اليمني سارحاً في سنينه الماضية مفتقداً أصدقائه أيام الجامعة بعد أن فُصل هو والدكتورة "سارة" من الجامعة بعد أن كُشفت العلاقة بينه وبين الدكتورة "سارة" التي كانت تقدم له ما إستطاعت كشفه من الإمتحانات.

أما "أمل" وباقي الدفعة فقد تخرجوا جميعاً ويقضون الآن خدمتهم المدنية، كما أن "معاوية" و"مزن" قد صارا في السنة الرابعة.

بعد أن قضى "حِميدة" مدة في السجن، وقبل أن يكتمل التحقيق تدخل أحد رفاقه برتبة لواء في الدعم السريع وتم تهريب "حميدة" ومخبره من السجن بعد أن دفعوا رشوة باهظة لمدير السجن وأن يكون له نصيب خمسة في المئة من محصول البنقو الذي يزرعونه، ومنها تم تهريبهما إلي دولة تشاد، وكثيراً ما تحصل مثل هذه الأمور الخبيثة في هذه البلاد الكبيرة.

على قمة جبل نيالا، تحت ظل الشجرة الوحيدة يجلس "نبيل" و"خالد" قربه، شمس المساء تلوح لهما بالوداع، "نبيل" شاخصاً في اللا مدى أمامه وعلى بُعد أمتار ظهرت بفستان أبيض طويل، وجهها مشرق جميل يظهر عليه كحلٌ وزمام، "نوارة" تلوح له بإبتسام، وقف على قدميه عاشقاً مشتاقاً، سار نحوها بخُطى الشوق، يسير خطوة فتزداد المسافة بينهما خطوة، أسرع الخطى لعله يدركها، فتعثرت قدمه اليمنى بحجر، فقدَ توازنه، حاول "خالد" – المجنون – الضعيف أن يمسك بكتفه من الخلف إلا أنه كان أضعف من أن يمنع جسداً دحرجه الجبل فتدحرجا معاً كعُلبتين فارغتين حتى إستقرا عند أسفل الجبل جثتين هامدتين باردتين، عاشقين، صادقين.

وفي قانون الحياة، تمر الأيام وتمضي وقد صار قبريهما مَزاراً لكل عاشقٍ حزين ومَعلماً يرتاده سكان مدينة نِيالا، مدينة الحب والجمال، يأتون ويلقون التحايا بإسم الحب **ويقولون**:

هنا يرقد الصديقان، الصادقان، العاشقان والحزينان.

تمت